علاقة المنافقين باليهود في ضوء القرآن الكريم

أ. د. محمد عطا أحمد يوسف

شبكة الألوكة
www.alukah.net

علاقة المنافقين باليهود في ضوء القرآن الكريم

إعداد

الأستاذ الدكتور

محمد عطا أحمد يوسف

أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة طنطا

❁ المقدمة:

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

تحدَّث القرآن الكريم عن أصناف عدة من البشر، ومن بين الأصناف التي اهتمَّ القرآن بالحديث عنها صنفان: المنافقون، واليهود، فأما المنافقون فقد تحدث عنهم في أغلب السور المدنية، حتى خُصَّت سورة من سوره بالحديث عنهم، وهي (سورة المنافقون)؛ ولذلك ـ ولِمَا لهذا الصنف من خطورة على المجتمع الإسلامي؛ تناول العلماء ظاهرة النفاق، وأعمال المنافقين من خلال آيات القرآن الكريم في أكثر من مصنف قديما وحديثا.

وأما اليهود فللقرآن معهم حديث طويل جدا، يتبدى في ألوان عديدة من خلال سوره المدنية طويلها وقصيرها على السواء، وقد لفت هذا أنظار علماء المسلمين فصنفوا عن اليهود في القرآن كثيرا.

وهذا البحث يقدم محاولة متواضعة يضع بها أيدينا على العلاقة التي تربط بين هذين الصنفين: المنافقين، واليهود في ضوء القرآن الكريم، وقد صرح القرآن الكريم بهذه العلاقة في عدة مواضع سنعرضها من خلال المراحل التي مرت بها.

ولِمَا لهذه العلاقة من خطورة على المسلمين، فقد حذرنا الله سبحانه وتعالى من المنافقين فقال عنهم لنبيه صلى الله عليه وسلم، ولأتباعه من بعده: ﴿**هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ**﴾ [المنافقون:٤]

وكذلك اليهود حذرنا الله منهم أيضا فقال عنهم: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ**﴾ [المائدة:٨٢]

ولذلك فليس بمستغرب أن يُعلن حُيَيُ بن أخطب اليهودي النَّضري عداءه للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أول لقاء بينهما، وليس بمستغرب كذلك أن يُعلنَ عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين حبه لليهود وهو في وقت الاحتضار!!

ولهذا السبب ولأنني لم أرَ _فيما أعلم_ من تعرض لهذه العلاقة بالبحث، ولِمَا ترتب على هذه العلاقة من نتائج كانت ولا زالت تُمَثِّلُ خُطُورةَ على المجتمع الإسلامي؛ رأيت أنَّ الكشف عن كنهها مِنْ خلال القرآن الكريم أمرٌ يستحقُّ البحث فيه والدرس.

وقد قسمت هذا البحث إلى أربعة مباحث:

❋ **المبحث الأول:** وتناولت فيه الفرق بين النفاق الأكبر والنفاق الأصغر؛ لأصل من خلاله إلى أن هذا البحث يقصد أصحاب النفاق الأكبر لعلاقتهم باليهود، ورجحت فيه الرأي القائل أن النفاق نشأ بالمدينة، وبيَّنت فيه الأسباب الداعية إلى نشأة العلاقة بين المنافقين واليهود.

❋ **المبحث الثاني:** تناولت فيه المرحلة الأولى وهي: (مرحلة المعيَّة) وذلك اقتباسا من قوله سبحانه: ﴿**وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ**﴾ [البقرة:١٤]

وبعد الحديث فيه عن معنى المعية والخلوة التي تمت بين المنافقين واليهود؛ حاولت أن أربط بين ذلك وبين الواقع التاريخي لهذه العلاقة في هذه المرحلة من خلال الأحداث التي برزت فيها هذه العلاقة، وفعلت ذلك في كل المراحل التالية.

❋ **المبحث الثالث:** تناولت فيه المرحلة الثانية وهي:(مرحلة الموالاة)؛ وذلك اقتباسا من قوله سبحانه:﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ**﴾ [المائدة:٥١]

فتحدثت عن معنى الموالاة التي وقعت بين المنافقين واليهود، وأثرها على المجتمع الإسلامي آنذاك.

❋ **المبحث الرابع:** كان عن المرحلة الثالثة: (مرحلة المؤاخاة)؛ وذلك اقتباسا من قوله سبحانه: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ**...﴾[الحشر:١١]

وهي المرحلة التي تعاهد، وتعاقد فيها المنافقون مع اليهود للعمل ضد النبي ﷺ والكيد للإسلام وللمسلمين.

وهذا التقسيم المرحلي ما هو إلا اجتهاد، حاولت الاعتماد فيه على ترتيب أسباب نزول الآيات التي تحدثت عن كل مرحلة، وما وقع في هذه المرحلة أو تلك من أحداث

نسج المنافقون واليهود معا خيوطها، وحاولت أن أرصد في كل مرحلة من هذه المراحل أهم سماتها الغالبة عليها.

وقد تبدى لي من خلال هذه المراحل التي مرت بها العلاقة بين المنافقين واليهود نتائج إيجابية، وأخرى سلبية ، فذكرتها بصورة مجملة.

وأخيرا فهذا جهد متواضع حاولت به الوقوف على هذه العلاقة التي شكَّلت تحديا للمسلمين في عصورهم الأولى، ولا زالت حتى وقتنا هذا، والله أعلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المبحث الأول:

أولا: ما هو النفاق الأكبر والنفاق الأصغر؟

قد يوحي هذا التساؤل أنني سأضع تعريفا جديدا للنفاق، أو وصفا مستحدثا للمنافقين، والأمر على غير ذلك، فالقصد من هذا التساؤل هو تحديد صنف معين من المنافقين تربطهم باليهود علاقات أشار إليها القرآن، وفاضت بها كتب التفسير، والحديث، والسيرة النبوية، والتاريخ.

وعلى ذلك فالنفاق لغة: مأخوذ من النَّافِقَاء، اللفظ الذي يطلق على إحدى جحرة اليربوع يكتمها ويظهر غيرها، وهو موضع يرققه، فإذا أُتِيَ من قِبَل القَاصِعَاءِ ضرب النَّافِقَاءَ برأسه فانتَفَقَ: أي: خرج...، ومنه اشتقاق المنافق في الدين.(١)

والنفاق في الاصطلاح الشرعي: إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بهذا المعنى الخاص، وإن كان أصله الذي أُخِذَ منه في اللغة معروفا.(٢)

ولا شك أنني لا أقصد بالمنافقين في بحثي هذا الصحابيَّ الجليلَ حنظلةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما قال عن نفسه: (نافق حنظلة!)(٣)؛ لأنه عافس الأموال والأولاد، ولا أقصد ما قاله أحد الصحابة لأخيه – عندما ثارت ثائرة المنافقين في حادث الإفك: إنك منافق تجادل عن المنافقين.(٤)

---

(١) تاج اللغة وصحاح العربية . إسماعيل الجوهري ٤/١٥٦٠ . تحقيق أحمد عبد الغفور . دار العلم للملايين الطبعة الثانية . ١٣٩٩ هـ والمفردات في ألفاظ القرآن . الراغب الأصفهاني صـ٨١٩ . تحقيق صفوان عدنان . دار القلم . دمشق . ١٤١٢هـ والمزهر في علوم اللغة للسيوطي ١/٣٠١ دار إحياء الكتب العربية . مصر . الطبعة الثالثة . ١٣٧٦هـ.

(٢) كتاب الإيمان . محمد بن منده صـ٢٦٥ . طبعة المجلس العلمي . الجامعة الإسلامية . المدينة المنورة . ١٤٠١ هـ.

(٣) كما في صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة، (٤/٢١٠٦)، برقم: (٢٧٥٠).

(٤) هذا قول أسيد بن حضير لسعد بن عبادة في حادث الإفك عندما طلب سعد بن معاذ الإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتل من تولى كبر الإفك. تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ٦/٢٠، المحقق: سامي سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م.

ونستبعد من ذلك أيضا سؤال عمر بن الخطاب لحذيفة بن اليمان: هل أخبره الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن اسمه بين المنافقين؟[١]

بل إنَّ العلماءَ المحققين عندما شرحوا حديث صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي حدَّد فيه آيات المنافق قائلا: ((أربع مَنْ كُنَّ فيه كانَ منافقا خالصا، ومَن كانت فيه خَلَّة منهن كان فيه خلة من نفاق حتى يَدَعَهَا: إذا حَدَّثَ كَذب ، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر))[٢]

رأي هؤلاء العلماء –كما ذكر عنهم الإمام مسلم–: "أن هذه الخصال خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال، ومتخلق بأخلاقهم، فإن النفاق هو إظهار ما يظهر خلافه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال، ويكون نفاقه في حق من حَدَّثه، ووعده وائتمنه، وخاصمه وعاهده من الناس، لا أنه منافق نفاقَ الكفارِ المخلَّدين في الدرك الأسفل من النار، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((كان منافقا خالصا)) معناه: شديد الشَّبَهِ بالمنافقين بسبب هذه الخصال. قال بعض العلماء: وهذا فيمن كانت هذه الصفات غالبة عليه فأما ما يندر فليس داخلا فيه".[٣]

ونصل مما سبق إلى نتيجة مهمة، ألا وهي: إن المنافقين في مجملهم صنفان:

الأول: (المنافقون نفاقا أكبر، وهم الذين أسلموا ظاهرا، وكفروا باطنا، وهم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥] كنفاق عبد الله بن أبى بن سلول وأضرابه، وذلك بأن يظهر تكذيب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو جحود بعض ما جاء به، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرَّة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك مما لا يكون إلا عدوا لله ولرسوله.

(١) صفة النفاق وذم المنافقين لأبي بكر الفريابي صـ٥٩ دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ.

(٢) الحديث صحيح، أخرجه البخاري، انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١/٥،٨٩/١٠٧،دار المعرفة بيروت لبنان د٠ت ،والفريابى في صفة النفاق صـ٢٩ ، ٣٠عن عبد الله بن عمر.

(٣) صحيح الإمام مسلم بشرح النووي ٢/٤٦، ٤٧ ـ مكتبة الحلبى . مصر . ١٣٤٩ هـ

ثانيا: المنافقون نفاقا أصغر، وهو نفاق الأعمال، كما سبق وأن أشار العلماء في شرح الحديث آنفا، كأن يكذب مرة أو يخون أخرى أو يغدر ثالثة)[١]

وقد أثار هذا التقسيم تساؤلا، يقول أصحابه: إن النفاق بهذا المعنى قد انتهي القسم الأول منه(أي النفاق الأكبر) الذي يُمَثِّله ابنُ أُبَيٍّ، ومَن لَفَّ لَفَّه بانتهاء عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموت هؤلاء، ولم يَبْقَ إلا نفاق العمل، أي القسم الثاني منه فقط؟[٢]

وتأتي الإجابة على هذا التساؤل من وجوه:

◈ **الوجه الأول**: إن الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التي تتحدث عن المنافقين وردت بصيغة العموم، فلم تحدد زمنا ولم تذكر أشخاصا، فإذا قيل: إن بعض الآيات مرتبط بأسباب نزول صحيحة قد حددت زمنا، أو أشخاصا ؟ فنقول: إنَّ العلماء قد اتفقوا على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.[٣]

◈ **الوجه الثاني**: إننا يجب أن نُمَيِّزَ بين المنافقين الذين عاصروا التنزيل، وبين الذين أتوا بعدهم، فلا شك أنَّ الذين عاصروا التنزيل قد انقطعوا بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوقت يسير، فقد أخرج البخاري عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾[التوبة:١٢]: (ما بقي من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة، ولا من المنافقين إلا أربعة).[٤]

---

(١) الفتاوى، لابن تيمية ٤/٢٨ ٣٣،٤٣٥ . مطبعة الرياض . السعودية . الطبعة الأولى .١٣٨٢ هـ ، والصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية صـ٣٠ تحقيق: محمد عبد الحميد . عالم الكتب . بيروت . لبنان . ١٤٠٣هـ.(بتصرف).

(٢) الفِصَل في في الملل والأهواء والنحل . لابن حزم ٧٤/٥ . تحقيق محمد إبراهيم نصر . دار عكاظ. الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ والفتاوى لابن تيمية ٤٣٤/٢٨ (بتصرف).

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٩٦/١ . تحقيق . د/ مصطفي البغا . دار ابن كثير . بيروت . الطبعة الأولى . ١٤٠٩هـ.

(٤) فتح الباري لابن حجر ٣٢٢٠/٨.

وقد عقَّب الدكتور عبد العزيز الحميدي على ذلك بقوله: (وهذا مما يُوَضِّحُ كون حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قد اختُصَّ بمعرفة بعض المنافقين، وإذا كان الأمر كذلك لم يكن في هذا حصر للمنافقين في عهد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وإنما هو بيان لطائفة منهم)(١)

وأما من سار على نهجهم، واتَّبع سبيلهم، فلم ينقطع سيلهم الجرَّار حتى عصرنا هذا، بل مما لا شك فيه أنهم زادوا، واتخذوا أشكالا وألوانا جديدة تساير الأزمان والعصور، وبخاصة أن الوحي الذي كان يكشف خبيئتهم، والرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي كان يهتك أستارهم قد انتهيا.

◈ **الوجه الثالث**: إن الأسباب التي أدت إلى ظهور النفاق لازالت قائمة، فعلى الرغم من تطهير الجزيرة العربية من اليهود السبب المباشر في ظهور النفاق(٢). إلا أنهم حرصوا منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا على تنشئة أجيال ترث ميراث عبد الله بن أبي بن سلول وتقوم بدوره .

◈ **الوجه الرابع**: إن التاريخ الإسلامي يشهد بذلك قديما كما نراه واضحا في دور عبد الله بن سبأ وفتنته بين المسلمين(٣)، وميمون القداح اليهودي الذي أسلم نفاقا وأثار فتنة الباطنية (عام ٢٧٦ هـ) ، وابن نغالة اليهودي الذي أسلم نفاقا أيضا، وظل يترقى في بلاط ملوك البربر بالأندلس حتى احتل كرسي الوزارة، وكان اسمه(باديس) وعمل على زوال دولة البربر من الأندلس.(٤)

وحديثا يضرب بعض الباحثين المثل بـ (مصطفي كمال أتاتورك) وما فعله من إلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا واستبدالها بالقانون العلماني.(٥)

---

(١) المنافقون في القرآن الكريم . د/عبد العزيز الحميدي صـ٤٥٩ . دار المجتمع . جدة . طبعة أولى . ١٤٠٩ هـ.

(٢) سنتناول ذلك بالتفصيل في الصفحات التالية إن شاء الله.

(٣) عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام . سليمان بن حمد العودة . صـ٥٠ ، وما بعدها. دار طيبة . الرياض . الطبعة الثالثة . ١٤١٢ هـ ،

(٤) مكائد اليهود عبر التاريخ د/ عبد الرحمن حبنكة، صـ١٧٣ ، ٢١٠ . دار القلم . دمشق . الطبعة الأولى . ١٣٩٤ هـ.

(٥) المنافقون في القرآن الكريم ، د/ محمد يوسف صـ٢٣٣ . دار التوزيع والنشر الإسلامية مصر ١٩٩١م.

وخلاصة القول: إنني لا أقصد بالمنافقين في بحثي هذا هؤلاء الذين أصابهم بعض الرياء والعجب في أعمالهم ، والذين تابوا من نفاقهم وأخلصوا دينهم لله ، إنما يقصد البحث هؤلاء الذين اتخذوا الكفر عقيدة وعداوة، الإسلام سلوكا مع إعلانهم الإسلام ليعصموا به دماءهم، ويحفظوا به بعض مكانتهم، ويُحَقِّقُوا به مطامِعَهم الدنيوية الرخيصة.

هؤلاء الذين جمعتهم مع اليهود أشد الناس عداوة للذين آمنوا معية وموالاة ومؤاخاة.

❋ ثانيا: هل ظهر النفاق في مكة ؟

يرى الدكتور/ عبد العزيز الحميدي أن النفاق ظهر في مكة، وأن نشأته الأولى لا ترتبط بالمدينة، كما هو مشهور بين العلماء.(١)، وقد استدل على ذلك بدليلين:

الدليل الأول: دليل نقلي، يعتمد على رواية عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ ﴿**وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ**﴾[العنكبوت:١٠: ١١] يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم قبل بعض، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأُكْرِهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت الآية: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ**﴾[النساء:٩٧] إلى آخر الآية: قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية أن لا عذر لهم، فخرجوا فلحقهم المشركون، فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم هذه الآية: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ**﴾ الآية، فكتب المسلمون إليهم بذلك فخرجوا وأيسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[النحل:١١٠] فكتبوا إليهم بذلك: إن الله قد جعل لكم مخرجا، فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم، حتى نجا مَنْ نجا، وقُتِل مَنْ قُتِل)(٢)

---

(١) النفاق والمنافقون للحميدي صـ٩٩، ١٠٠ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري . ٢٠ /٢٣٥ مكتبة ومطبعة الحلبى . مصر . ١٣٧٣ هـ وطبعة المطبعة الأميرية . الطبعة الأولى . مصر ١٣٢٣ هـ ، وطبعة دار المعارف.

ومن هذه الرواية استنتج الدكتور ما يلي: "وظاهرٌ من هذه الرواية أن هذه الآية نزلت في طائفة من أهل مكة أسلموا، ولم يهاجروا مع قدرتهم على الهجرة، بل بقوا في مكة مُسْتَخْفِين بإسلامهم، فاعتبرهم الله مُؤَاخَذِين على إقامتهم في بلد يتعرضون فيه للفتنة...واعتبر الذين استجابوا للفتنة، واعتبروا عذاب الناس كعذاب الله منافقين ، حينما كانوا في وقت الرخاء يظهرون الإيمان"(١)

وقال أيضا: "إننا حينما نستعرض الرواية السابقة نجدها تتحدث عن ناس من أهل مكة أسلموا ولم يهاجروا إلى المدينة، بل أقاموا بمكة مستخفين بإسلامهم، وحينما نقارن ذلك بما نزل فيهم من الآيات التي صرحت باتهامهم بالنفاق يتبين لنا أنه قد كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافقون من أهل مكة أيضا"(٢)

وهذه النتيجة التي خلص إليها الدكتور الحميدي لا تسلم المنازعة التي نؤكد من خلالها نشأة حركة النفاق بالمدينة لا بمكة، ودليل ذلك:

أولا: إن الرواية التي اعتمد عليها الدكتور ليست هي الرواية الوحيدة التي ذكرها الطبري –المصدر الذي أخذ عنه الدكتور– وإنما ذكر بعدها رواية أخرى عن قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول فيها:(هذه الآيات نزلت في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة، وهذه الآيات العشر مدنية إلى هنا وسائرها نزل في مكة)(٣)

ومن كلام قتادة نرى أن الآيات العشر الأول من سورة العنكبوت، وهُنَّ موضع الاستدلال نزلن بالمدينة، وقد اعتمد السيوطي على رأي قتادة هذا في بيان الآيات التي نزلت بالمدينة من السور المكية، فقال: (فصل في ذكر ما استُثني من المكي وهو مدني: في سورة العنكبوت استثنى من أولها إلى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت:١١] لِمَا أخرجه ابن جرير في سبب نزولها)(٤) يقصد الأثر السابق عن قتادة وإذا كان ذلك

---

(١) النفاق والمنافقون للحميدي صـ ١٠٠.

(٢) المصدر السابق الصفحة نفسها.

(٣) جامع البيان ٢٠/ ٨٦.

(٤) الإتقان ٤٣/١ ، ٤٨. وعلى هذا فإن قول النيسابوري في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال:٤٩] أنهم قوم من الأوس والخزرج من المدينة أرجح من قول الطبري: أنهم من أهل مكة، والله أعلم. راجع تفسير الطبري جامع البيان ١٠/ ١٥، وغرائب الفرقان ورغائب الرحمن للنيسابوري على حاشية تفسير الطبري جـ ١٠/صـ٩).

كذلك فلا نستبعد أن يكون المقصود بالمنافقين المذكورين في الآية هم منافقوا المدينة والله أعلم.

وقد يعترض بعض العلماء على ما قاله قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ونصَّ عليه السيوطي في القول بمدنية هذه الآية، ويشكك في ذلك كما نرى في قول الدكتور/ محمد عزة دروزة الذي قال في حديثه عن علة ظهور حركة النفاق بالمدينة دون مكة قائلا: "في سورة العنكبوت المكية آيات احتوت على كلمة (المنافقين) ولقد روى المفسرون أن هذه الآيات مدنية، غير أننا شككنا في ذلك استلهاما مما سبقها، وما لَحِقَ بها من الآيات، وسواء أصَحَّ استلهامنا أم لم يصح؛ فإن حركة النفاق التي نجحت في مناوأة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين والإسلام هي في الحقيقة مِن حركات العهد المدني وأحداثه".[١]

وكذلك قال سيد قطب في تفسيره لهذه الآية: "إن بعض الروايات ذكرت أن الإحدى عشرة آية الأولى من سورة العنكبوت مدنية؛ وذلك لذكر الجهاد والمنافقين فيها، لكنه يرجح أن هذه الآيات مكية، ويعلل ذكر الجهاد فيها بأنه ضد الفتنة، فالمقصود به في هذا الموضع جهاد النفس لتصبر ولا تُفْتَن، وكذلك ذِكْرُ النفاق قد جاء بصدد تصوير نموذج من الناس".[٢]

ثانيا: إننا نلاحظ في رأي الدكتور/ دروزة أنه لم يؤكد شكه في مدنية الآية بدليل واضح؛ إنما هو مجرد استلهام من معنى الآيات السابقة واللا حقة للآية، ووضع رأيه كله بين الصحة والخطأ، فقال: "وسواء صح استلهامنا هذا أم لم يصح" بل إنه أكد مدنية حركة النفاق في نشأتها بأدلة سنذكرها في موضعها إن شاء الله.

وأما رأي سيد قطب، فإنه لا ينفي نزول هذه الآيات – موضع الاستدلال- بالمدينة، وإنما يرى مِنْ معنى الآيات أنها مكية الموضوع، ويرى أنها تصور حالة نموذج من الناس، ولا أستبعد نشأة هذا النموذج بالمدينة !! وبخاصة أنه أكد نشأة حركة النفاق في المدينة في أكثر من موضع في تفسيره.[٣]

---

(١) سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم صور مقتبسة من القرآن الكريم د/ محمد عزة دروزة ٧٣/٢ تحقيق: عبد الله الأنصاري، مكتبة إحياء التراث . قطر . د.ت.

(٢) في ظلال القرآن . سيد قطب . ٢٧١٨/٥ . دار الشروق . مصر الطبعة التاسعة . ١٤٠٠ هـ . (بتصرف)

(٣) المصدر السابق ١/ ٤٢.

ثالثا: إن هذه الآية إذا سلمنا أنها مكية النزول تمشيا مع من يرى ذلك؛ فإن لفظ النفاق الذي ذكر فيها يجعل مضمونها مدنيَّ الدلالة، وهذا هو سبب استثناء السيوطي لها، وجعلها من الآيات المدنية حتى وإن نزلت في مكة.[١]

ثم إن علماءنا الأجلاء قديما كالطبري، والقرطبي، وابن القيم، وابن كثير، والصالحي، وغيرهم[٢]

وحديثا مثل: د/ محمد عزة دروزة، وسيد قطب، ود/ محمد سيد الوكيل، د/ عماد الدين خليل، والأستاذ منير الغضبان، والأستاذ على سالم وغيرهم، قد ذكروا أن حركة النفاق مدنية النشأة[٣] والله أعلم.

* * * * *

الدليل الثاني: دليل عقلي، يقول فيه الدكتور الحميدي معللا نشأة النفاق في مكة: (وقد يكون هذا مستغربا في النظرة الأولى لأن الانسان عادة لا يضطر إلى النفاق إلا إذا كان يعتقد عقيدة جاهلية، وهو يعيش بين المؤمنين، أما أن يكون مقيما مع الكفار متمتعا بحمايتهم، ثم يظهر الإيمان للمؤمنين نفاقا فأمر مخالف للعادة، ولكنه مع ذلك ممكن الوقوع ... وذلك أن بعض الناس يكون هدفه الأسمى في هذه الحياة هو تأمين سبيل العيش لنفسه براحة واطمئنان، فإذا وجد في مجتمعه دعوة بارزة تناقض تعاليمها التعاليم التي توارثها ذلك المجتمع بدأ بالتفكير في الأمر الذي يحقق له مصالحه الخاصة؛ لأن النتيجة الطبيعية لذلك الاختلاف هي حدوث صراع بين الأفكار المتوارثة وبين الفكرة الجديدة التي تناقضها إذا وجد من يُمَثِّل تلك الدعوات ويدافع عنها، ولا بد في النهاية من غلبة إحدى الطائفتين على الأخرى، فهو يريد أن

---

(١) انظر ما سبق صـ ٧.

(٢) جامع البيان ١/١٠١١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/٢٠٧، دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان . ١٣٧٢هـ، وزاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٤٣ تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط . مكتبة المنار . الكويت . ١٤١٢ هـ، وتفسير القرآن العظيم ١/٤٧ ، وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٥/ ٦٠٥ للصالحي . تحقيق عبد العزيز حلمي . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . مصر . ١٣٩٥ هـ.

(٣) السيرة النبوية لدروزة ٢/٧٣ ، وفي ظلال القرآن ١/٤٢، والمدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى . د/ محمد سيد الوكيل . صـ ٩١ ، دار المجتمع . جدة . الطبعة الثانية .١٤٠٩ هـ ، ودراسة في السيرة د/ عماد الدين خليل صـ ٣٧٠ مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الثالثة ١٣٩٨هـ، والنفاق والمنافقون للأستاذ إبراهيم سالم صـ ٧٥ دار الشعب . مصر . ١٩٦٩م، والمنهج الحركي للسيرة النبوية الأستاذ منير الغضبان . ١/ ٢٤٧ مكتبة المنار الأردن . الطبعة السادسة ١٤١١هـ.

يكسب ود الجميع ، فيظفر بعد ذلك بالحظوة لدى الطائفة المنتصرة منهما والسلامة من عواقب معاداتها.

وقد تمثلت هذه الفكرة في عالم الواقع في هؤلاء الذين تحدثت عنهم هذه الآيات، وقد يكون بعض هؤلاء ممن أظهر الإيمان بالإسلام للمؤمنين حينما استعزوا بانتصارهم على المشركين في معركة بدر، والغالب أنهم ممن دخل في الإسلام قديما، ولكن إيمانهم قد تزعزع بسبب فتنة المشركين).[١]

وهذا الدليل العقلي لا يكفي أن يكون سببا في نشأة حركة النفاق بمكة وذلك لما يلي:

أولا: إن هناك فارقا واضحا بين الفتنة والنفاق (في هذا الموضع)، فالذين فُتِنُوا في دينهم من المسلمين في مكة كان بسبب إيذاء الكفار الشديد الذي لم يستثنِ من المسلمين أحدا، وكانت نتيجته فتنة بعض المسلمين، أي ردهم عن إسلامهم وإعلانهم الكفر، على نحو ما نري في قصة عياش وأضرابه[٢]

وأما النفاق فشيء آخر؛ إن المنافق يُعلنُ إسلامه وولاءه للمسلمين، وعداءه للكافرين ظاهرا أمام الناس، أما باطنه فهو مع أعداء الإسلام كما سبق ذكر ذلك.[٣]

وواقع المسلمين في مكة – قبل الهجرة – لا يسمح قط بإعلان الإسلام ظاهرا، فقد استفاضت الروايات الصحيحة في كتب التفسير والحديث والسيرة والتاريخ تشهد بما كان عليه المسلمون آنذاك من حالة استضعاف، وعدم تمكين، وصبر على الإيذاء، فكيف يفكر من حاله هكذا في إعلان إسلامه نفاقا!!![٤]

ثانيا: إذا كان النفاق ظهر بمكة – كما يرى الدكتور الحميدي – فمن هم رؤساؤه ومعلموه؟ وفي أي المصادر نجد ذكر مواقف هؤلاء المنافقين المكيين؟

وقد كان في مكة من الأحداث التي مَرَّ بها المسلمون ما يمثل فرصة للمنافقين لو وجدوا هنالك للحديث فيها ومحاولة النيل من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والإسلام

---

(١) النفاق والمنافقون للحميدي صـ ١٠٠، ١٠١.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٧٤ ، ٤٧٥(بتصرف).

(٣) انظر ما سبق صـ ٣.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٩١، ٢٩٤،٣١٧.

والمسلمين كحادث الإسراء والمعراج مثلا، وقد تحدث منافقوا المدينة فيما هو أقل من ذلك بكثير.[١]

ثالثا : قال ابن منده في كتابه (الإيمان): "لما هاجر النبي ﷺ صار الناس ثلاثة أصناف: إما مؤمن، وإما كافر مظهر الكفر، وإما منافق، بخلاف ما كانوا عليه وهو بمكة، فإنه لم يكن من المهاجرين منافق، وإنما كان النفاق في قبائل الأنصار، فإن مكة كان الكفار مُسْتَولِينَ عليها، فلا يؤمن ويهاجر إلا مَن هو مؤمن".[٢]

رابعا: إن الأسباب الداعية إلى ظهور النفاق لا نجدها في العهد المكي، وأما في العهد المدني فأسباب ظهوره حددها بعض العلماء بما يلي:

١- لم يكن للنبي ﷺ وللمسلمين نفوذ في مكة، والنفوذ يُوجِدُ الفئةَ المُتَمَلِّقَة المُتَزَلِّفَة في الظاهر، المكيدة في الباطن، الماكرة في الخفاء.

٢- العصبية القبلية كانت مانعا لبعض الأشخاص من متابعة أهل المدينة في الدخول في الإسلام.[٣]

٣ ـ إن من أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور حركة النفاق بالمدينة دون مكة هي مكائد اليهود للإسلام وللمسلمين وللمجتمع الإسلامي الناشئ بالمدينة ومحاولة القضاء عليه، وذلك بإيجاد منافقين من أبنائه والمنتسبين إليه يكونون معاول هدمه والتخلص منه.[٤]

---

(١) تكلم المنافقون في ضياع ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك انظر صـ

(٢) كتاب الإيمان . محمد بن منده . صـ١٨٩.

(٣) المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى صـ٩١ ، ٩٢، دراسة في السيرة صـ٣٦٤ ، ٣٦٥ (بتصرف).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٣٥، سبل الهدى والرشاد ٢/٦٠٦، ومكائد اليهود صـ٩٣ ، دراسة في السيرة النبوية صـ ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، وبنو إسرائيل في ميزان القرآن لصابر طعيمة . دار الجيل . بيروت . لبنان . ١٩٧٥ م، وبنو إسرائيل في القرآن تاريخ وتحقيق: د/السيد رزق الطويل صـ ١١٦ دار المعارف . مصر . ١٣٩٥ (بتصرف) وغير ذلك.

ثالثا: أسباب العلاقة بين المنافقين واليهود

تبين لنا من خلال آراء بعض العلماء أن حركة النفاق مدنية النشأة، وأنها مدينة لأحبار اليهود وعلمائهم الذين أسهموا بدور الريادة في نشأة هذا الكيان الغريب في جسد المجتمع المسلم آنذاك وفي هذا المبحث سنحاول التعرف على أهم وأبرز أسباب العلاقة التي ربطت بين المنافقين واليهود.

* * * * * *

عقد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد هجرته إلى المدينة معاهدة بين المسلمين واليهود.[١] حاول أن يؤجل بها الصدام بينه وبينهم إلى حين، ريثما ينتهي من أعدائه المتربصين بمكة، ومن حولها من قبائل العرب وأحابيشها.

وآنذاك كانت قبيلتا الأوس والخزرج المدنيتين تتسابقان في الدخول في الإسلام، وبذل ما في حوزتهما لنصرته، وذلك بعد انصرافهما عن عبد الله بن أبى بن سلول، الذي كان وقتذاك يعيش في خيال المنصب، وأوهام الرئاسة والسلطان، بعد أن عقدوا له تاج الملك عليهم وزينوه بالخرز وأوشوه بالديباج.[٢] ثم انقلب الأمر سريعا فذهب

---

(١) ذكر الدكتور محمد حميد الله سبعة وأربعين بندا من بنود هذه الوثيقة الهامة نذكر منها هنا البنود (٣٧، ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٧) وفيها : (وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم)، و(وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين) ، (وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم ، وان الله على ما في هذه الصحيفة وأبره)، (وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم). راجع : صـ٥، ٦، ٧ من كتاب (مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة . د/ محمد حميد الله صـ٥، ٦، ٧ مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة . د٠ت، وقد خرج هذه الوثيقة من مصادرها.

(٢) ذكر الدكتور محمد حميد الله سبعة وأربعين بندا من بنود هذه الوثيقة الهامة نذكر منها هنا البنود (٣٧، ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٧) وفيها : (وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم)، و(وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين)، (وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم ، وان الله على ما في هذه الصحيفة وأبره)، (وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) راجع : صـ٥، ٦، ٧ من كتاب (مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة . د/ محمد حميد الله صـ٥، ٦، ٧ مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة . د٠ت، وقد خرج هذه الوثيقة من مصادرها.

بريق التاج، وتناثر الخرز، وانفضَّ النَّاس مِن حول ابن أبي(١) ليلتفوا حول الوافد الجديد إلى المدينة، وهو النبي المرسل محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيُعَظِّموه ويُوَقِّرُوه ويُسَوِّدُوه عليهم، وهو المهاجر الضعيف الذي ليس معه من أسباب القوة سوى نفر قليل من المؤمنين المهاجرين المطاردين من بطش مكة، فشرق ابن سلول لذلك وحقد، ورأي أن محمدا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد استلبه ملكا، واشتد الحقد والغيظ بعد انتشار الإسلام سريعا في بيوتات المدينة حتى لم يبق فيها بيت إلا وللإسلام فيه نصيب وشبيه بابن سلول الخزرجي في حقده وحنقه وغيظه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ابن أخطب اليهودي النضري(٢)، زعيم اليهود آنذاك وسيدهم ، الذي أعلن عداوة النبي صلى الله عليه وسلم أمام أخيه أبى ياسر وابنته صفية بنت حيي، وذلك لمجرد سماعه قدوم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، فقد شهدت بذلك أم المؤمنين صفية رضى الله عنها حيث تقول: (كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، فلما قدم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي ياسر بن أخطب مغلسين، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا كسلانين ساقطين يمشيان الهويني، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلى واحد منهما، مع ما بهما من الغم قالت: وسمعت عمي أبا ياسر، وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو ؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته ؟ قال نعم ، قال: فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت)(٣)

لقد ذهبت الزعامة الدينية من ابن أخطب اليهودي، وذهبت الزعامة السياسية من ابن أبي في آن واحد بمقدم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، وكلم كل منهما في آماله في

---

(١) عبد الله بن أبى بن سلول هو (عبد الله بن أبى بن مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم الحبلى المعروف بابن سلول الخزرجي، وسلول جدته لأبيه من خزاعة ، وكان سيد أهل المدينة حين قدم إليها رسول الله عليه وسلم لم تجتمع الأوس والخزرج على رجل قبله ، وكانوا قد نظموا له الخرز ليتوجوه ويملكوه فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم انصرف عنه قومه إلى الإسلام فحقد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأي أنه استلبه ملكا ثم رأي قومه قد أصروا على الدخول في الإسلام فدخل فيه نفاقا) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٢/ ٩٠/ . دار صادر بيروت . د٠ ت ، والروض الأنف في شرح السيرة النبوية للسهيلي ٢٢/٥ ، ٣٩، تحقيق عبد الرحمن الوكيل . دار الكتب الحديثة مصر . د ٠ ت. وذكر في ٥/ ٢٢ عن ابن هشام أن ابن أبى أسلم كارها مصرا على نفاق وضغن (بتصرف).

(٢) حيي بن أخطب.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٥١٩/٢ ، وسبل الهدى والرشاد ٣/ ٥٤٩.

الزعامة والملك، ونتج عن ذلك عداء شديد لهذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللدين الذي يدعو إليه، وصار هدف الرجلين الحالمين بالزعامة هدفا واحدا يتمثل في العداء للإسلام ولنبيه ولأتباعه.

ولا بأس أن يأخذ هذا العداء صورة معلنة من جانب اليهود وعلى رأسهم ابن أخطب، وصورة خفية من جانب المنافقين، وعلى رأسهم ابن سلول فيعلن إسلامه ظاهرا[١] وليستمر ما بينهما مما كان قبل الإسلام من أحلاف ومعاهدات وليكن الهدف الجديد هو التخطيط لحرب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القادم ومحاولة القضاء على الإسلام.

كانت هذه إحدى مشاهد الواقع الذي عاشه المجتمع المدني آنذاك، والذي ترتبت عليه أحداث جسام كان من نتيجتها أن حدد الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم سبب العلاقة بين المنافقين واليهود من ناحية ونوع هذه العلاقة بينهما، وبين المؤمنين من ناحية أخرى، فقال سبحانه وتعالى عن المنافقين: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤] وقال عن اليهود : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة:٨٢]

إنه الهدف الواحد المشترك المتمثل في العداء للإسلام، وهو سبب كاف لتوحيد كلمة المنافقين واليهود وتوثيق العلاقة بينهما، ووضع الخطط المشتركة التي كشفت الأحداث عن بعضها[٢] . للتخلص من هذا العدو المشترك.

وللصالحي تصوير حي لهذا المشهد الذي ذكرناه آنفا يقول فيه: "ولما قدم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة أسلم بشر كثير ممن أراد الله هدايته وانضاف إلى اليهود أناس من الأوس والخزرج ممن كان عسا في الجاهلية فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه، فتظاهروا بالإسلام، واتخذوه جنة من القتل، ونافقوا في السر، وكان هواهم مع يهود لتكذيبهم برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجحودهم الإسلام".[٣]

ولعلنا بذلك نكون قد وقفنا عند السبب الأول المتمثل في المصالح السياسية.

وأما السبب الثاني لهذه العلاقة فهو سبب ديني يتمثل في أمرين:

---

(١) سيأتي الحديث عن إسلام ابن أبى بعد صفحات.

(٢) سنذكر ذلك بالتفصيل فيما بعد إن شاء الله.

(٣) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٦٠٦ ، ٦٠٧.

◈ **أولاهما:** ضعف الإيمان عند اليهود والمنافقين، فقد تحدث القرآن الكريم عن مسألة ضعف الإيمان عند اليهود في مواضع شتى أبرزها تلك التي يتجرؤون فيها على ذات الله فيصفونه بالبخل والفقر – تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا– وعبادتهم العجل من دونه سبحانه، ثم قتلهم الأنبياء وتحريفهم التوراة، وأكلهم أموال الناس بالباطل وغير ذلك مما لا يدع مجالا للشك في ضعف إيمانهم بخالقهم ضعفا شديدا[١]

وأما المنافقون فقد بيَّن الله ضعف إيمانهم فيما وصفهم به من صفاتٍ دالة على ذلك (فإنه وصفهم بمخادعته، ومخادعة عباده، ووصف قلوبهم بالمرض، وهو مرض الشبهات والشكوك، ووصفهم بالإفساد في الأرض، وبالاستهزاء بدينه وعباده، وبالطغيان واشتراء الضلالة بالهدى، والتردد، وهو التذبذب بين المؤمنين والكفار، فلا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، والحلف باسمه تعالى كذبا وباطلا وبالكذب ، وبعدم الإيمان بالله وباليوم الآخر وكراهتهم لظهور أمر الله ، ومحو الحق، وأنهم يحزنون بما يحصل للمؤمنين من الخير والنصر، ويفرحون بما يحصل لهم من المحنة والابتلاء، وأنهم يتربصون الدوائر بالمسلمين ...إلخ)[٢].

◈ **والأمر الثاني:** إنَّ مِن بين الأسباب المهمة لنشأة العلاقة بين المنافقين واليهود هو حرص المنافقين الدائم إلى مرجعية دينية ودنيوية يبتغون لديها العزة، وتمثلت المرجعية الدينية في تقليد اليهود في نفاقهم، فقد كان اليهود قبل هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة يستفتحون على العرب بظهور نبي مرسل يؤمنون به ويقاتلون معه العرب[٣]، فلما جاءهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحق من ربهم؛ كان لا بد لهم من موقف حياله؛ إما الإيمان، وإما الكفر، وإما النفاق، فآمن قليل منهم، وكفر أغلبهم، ونافق بعضهم، وهذا البعض الذي نافق كانت له أهداف محددة تحدثت عنها

---

(١) كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ [المائدة:٦٤] وقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[آل عمران:١٨١] وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [البقرة:٩٢] وقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[آل عمران:١٨١] وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:٤١] وغيرها.

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم . صـ ٤١٦ تحقيق بشير عيون . مكتبة المؤيد . الرياض . الطبعة الأولى . ١٤١٤ هـ.

(٣) سبل الهدى والرشاد ٥٤٨/٣.

سورة البقرة وسورة آل عمران، ففي سورة البقرة يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[البقرة:٧٦].

وفي سورة آل عمران نرى وضوحا للهدف من خطة النفاق اليهودي، فيقول سبحانه وتعالى على لسانهم: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[آل عمران:٧٢] فالهدف من النفاق بالنسبة لليهود واضح، وهو التشكيك في الإسلام، فَرِدَّتُهُم آخرَ النهار بعد إيمانهم يعني أنهم وجدوا أن هذا الدين لا يصلح أن يكون منهاجا لحياة الناس!

والهدف الثاني: تكوين نواة من المنافقين الذين يعلنون الإسلام ظاهرا، ويبطنون الكفر في قلوبهم، وقد رأينا نفرا من اليهود قام بذلك وسنرى بعضَ الأدوار المهمة مع المنافقين في حرب الإسلام.

وقد تعلم المنافقون هذه الخطة، ووعوا هذا الدرس إلا أنهم كانوا أعمق في نفاقهم من أساتذتهم اليهود، ذلك أنهم لم يُعلنوا ردتهم عن الإسلام، وإنما لجأوا إلى الحلف الدائم والأيمان الكاذبة أنهم مع المؤمنين !!

وأما المرجعية الدنيوية فكانت في الأحلاف التي كانت قائمة بينهما على ما سنرى في دفاعهم عن بني قينقاع وبني النضير، وغير ذلك.[١]

وقد حكى القرآن الكريم عنهم الأسباب التي من أجلها أنشأوا علاقة على هذا النحو، فقال سبحانه وتعالى عن المنافقين: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٩،١٣٨]

وأما **السبب الثالث:** فهو التشابه النفسي بين المنافقين واليهود، وفي التوراة حديث عن النفسية اليهودية، يبين كنهها ويكشف عن سجيتها.

تقول التوراة: (اسمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب، وقضاة بني إسرائيل الذين يكرهون الحق، ويعوجون كل مستقيم، الذين يبنون صهيون بالدماء، وأورشليم بالظلم،

(١) سنتناول ذلك بالتفصيل فيما بعد إن شاء الله.

رؤساء يقضون بالرشوة، وكهنتها يعملون بالأجرة، وأنبياؤها يُعرفون بالفضة، فهم يتوكلون على الرب قائلين: أليس الرب في وسطنا؟ لا يأتي علينا شر!!! لذلك بسببكم تفلح صهيون كحقل وتصير أورشليم خرابا، وجبل البيت شوامخ وعر).[١]

وتقول التوراة: (فلو أرسلتك إلى هؤلاء لسمعوا لك، لكن بيت إسرائيل لا يشاء أن يسمع لك، لأنهم لا يشاءون أن يسمعوا لي؛ لأن بيت إسرائيل صِلاب الجباه، وقساة القلوب).[٢]

فهي نفس معوجة تكره الحق، وتحيد عن الصراط المستقيم، وتعيش قاضية بالظلم، وتتعامل بالغش والرشا... وهي نفس فيها تكبر وتجبر وقسوة...إلخ

وتحدث القرآن الكريم عن النفسية اليهودية حديثا طويلا بيَّن فيه كثيرا من صفاتها، وليس بمستغرب أن نرى هذه الصفات تتجسد في سلوك المنافقين الذين يعلنون الإسلام ظاهرا !!!

فصفة الجبن والانخذال عن القيادة أوقات الحروب والشدائد تحدث عنها القرآن الكريم في معركة موسى عليه السلام مع الجبارين، وبيَّن جُبْنَ اليهود في هذه المعركة وتخلفهم، وانخذالهم عن نبيهم وقائدهم حتى قعدوا قائلين: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]

وهذه الصفة نفسها –صفة الجبن والتخاذل– برزت واقعا في سلوك المنافقين مع نبينا وقائدنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في غزوة أحد، والأحزاب، وتبوك، فقد حاولوا الفرار؛ جبنا في غزوة الأحزاب محتجين بتكشف بيوتهم قائلين: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾[الأحزاب:١٣] فردَّ الله سبحانه وتعالى حجتهم الباطلة قائلا: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾[الأحزاب:١٣]

والحسد الأسود طبع متأصل في اليهود يتوارثونه في أجيالهم، حتى حسدوا الناس على فضل الله، فقد صوَّر سبحانه وتعالى هذه الخَلَّة الخبيثة عندهم قائلا: ﴿أَمۡ

---

(١) الكتاب المقدس الإصحاح الثالث سفر ميخا (١٢:٩/٣).

(٢) المصدر السابق الإصحاح الثالث سفر حزقيل (٧،٦/٣).

﴿يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[النساء:٥٤]

وكذلك فعل المنافقون مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد حسدوه على التفاف المسلمين حوله، وحبهم له ومسارعتهم في طاعته؛ فتواصوا على عدم الإنفاق على المؤمنين حتى ينفضوا عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾[المنافقون:٧]

والبخل والشح من خصال اليهود بها يعرفون، وعليها يتواصون ويأمرون، حتى قال سبحانه وتعالى واصفا ذلك فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[النساء:٣٧]

وكذلك تعلم المنافقون، وتشبهوا باليهود في بخلهم وشُحِّهِم حتى حكى الله عن بعضهم: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[التوبة:٧٥، ٧٦، ٧٧]

ولو تتبعنا الصفات النفسية المتشابهة بين المنافقين واليهود لوجدنا الكثير والكثير، بيد أننا نقتصر ههنا على ما ذكرناه ولعل فيه الدليل على أن النفسية اليهودية ونفوس المنافقين تستمد صفاتها من مَعِيْنٍ واحد؛ وذلك سبب مهم من أسباب قيام العلاقة بينهما –والله أعلم –.

المبحث الثاني: المرحلة الأولى (مرحلة المعية).

إن المصالح السياسية المشتركة، والأسباب الدينية الواحدة، والتشابه النفسي بين المنافقين واليهود لابد وأن ينتج عن ذلك كله علاقة وطيدة تظهر حينا وتختفي أحيانا.

وقد كشف القرآن الكريم بجلاء ووضوح هذه العلاقة، ووسمها بصفات وعبارات تدل على مدى ما كانت عليه من عمق وامتداد استغرق العصر النبوي في المدينة كاملا، واستمر من بعده حتى وقتنا هذا.

وقد اجتهدت في تقسيم هذه المراحل حسب الترتيب الزمني للسور القرآنية التي وردت بها الآيات الدالة عليها.

ففي سورة البقرة –التي يرى العلماء أنها أول سور القرآن نزولا بالمدينة –[١] أتت الإشارة واضحة إلى المرحلة الأولى من مراحل هذه العلاقة والتي أطلقت عليها اسم: (مرحلة المعية).

في أول هذه السورة تحدث الله سبحانه وتعالى عن المؤمنين في أربع آيات، وعن الكافرين في آيتين، وعن المنافقين في ثلاث عشرة آية[٢]وقال سبحانه وتعالى عن المنافقين: ﴿**وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ**﴾[البقرة:١٤]

ولنا مع هذه الآية وقفتان:

الأولى: في معنى قوله تعالى: (وإذا خلوا إلى شياطينهم) فما معنى الخلوة؟ ومن المقصود بالشياطين؟

والثانية: في قوله تعالى: (إنا معكم) وكيف كانت هذه المعية؟

أما المقصود بـ (شياطينهم)، فإن ابن عباس، وأبا مالك يريان أن الشياطين هنا هم اليهود، وعلى هذا نصَّ محمد بن إسحاق، ولم يذكر غيره، حكاه عنهم الطبري، وفصَّل القول فيه فقال: (إن الله جل ثناؤه لما جمع لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أمره في دار هجرته، واستقر بها قراره، وأظهر الله بها كلمته، وفشا في دورها الإسلام،

---

(١) فتح الباري ٨/ ١٦٠ (بتصرف).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩٢/١ عن مجاهد.

وقهر بها المسلمون من فيها من أهل الكتاب، أظهر أحبار يهودها لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الضغائن، وأبدوا له العداوة والشنآن حسدا وبغيا، إلا نفرا منهم هداهم الله للإسلام كما قال جل ثناؤه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[البقرة: ١٠٩] وطابقهم سرا على معاداة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وبغيهم الغوائل قوم من أراهط الأنصار الذين آووا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصروه، كانوا عتوا في شركهم وجاهليتهم، وظاهروهم على ذلك في خفاء غير جهار حذار القتل على أنفسهم، والسباء من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وركونا إلى اليهود؛ لِمَا هم عليه من الشرك، وسوءِ البصيرة بالإسلام، فكانوا إذا لقوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين قالوا لهم –حذرا على أنفسهم– إنا مؤمنون بالله ورسوله، وبالبعث، وأعطوهم بألسنتهم كلمة الحق، وإذا لقوا إخوانهم من اليهود وأهل الشرك والتكذيب بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خلوا بهم قالوا: (إنا معكم إنما نحن مستهزئون).(١)

ولعل هذا الرأي –الذي ذكره ابن عباس وابن إسحاق وأبو مالك وحكاه عنهم الطبري، ونقله عنه جمع من المفسرين قديما كالزمخشري، وابن كثير والألوسي(٢) وغيرهم.

وحديثا اختاره صاحب المنار، وسيد قطب، والدكتور عبد الستار فتح الله سعيد(٣) وغيرهم– أرجح مما ذهب إليه القرطبي في تفسيره لقوله: (وإذا خلوا إلى شياطينهم) إذ لم يذكر أن اليهود من الشياطين المذكورين في الآية، وإنما قال: (واختلف المفسرون في المراد بالشياطين هنا، فقال ابن عباس والسدى: هم رؤساء الكفر، وقال الكلبى: هم شياطين الجن. وقال جمع من المفسرين: هم الكهان).(٤)

---

(١) جامع البيان ١/١٠١.

(٢) الكشاف للزمخشري ١/١٨٦، دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان د.ت، وتفسير القرآن العظيم ١/٤٩ ، وروح المعاني للألوسي ١/١٤٣.

(٣) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ١/١٥٧، دار المعرفة بيروت لبنان طبعة سنة ١٤١٤هـ ، في ظلال القرآن ١/٤٥ ، المدخل إلى التفسير الموضوعي د/ عبد الستار فتح الله صـ١٣٧ دار الطباعة والنشر الإسلامية ـ مصر ١٤٠٦هـ.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١/٢٠٧.

وسبب الترجيح أن القرطبي لم يذكر سنده إلى ابن عباس رضى الله عنه، وأما الطبري فقد روى ما رواه عن سعيد بن جبير، وعكرمة عن ابن عباس، وهما ثقتان في الرواية عن ابن عباس(١)

وأما السدي: فله رواية أخرى ذكرها ابن كثير عنه عن أبي مالك، وفيها أن المقصود بالشياطين: رؤساؤهم من أحبار اليهود)(٢)

وأما الكلبي: فقد اتهموه بالكذب والضعف، ووضع الحديث.(٣)

وتعتبر عبارة ابن كثير أجمع العبارات في المقصود بقوله: (شياطينهم) إذ يقول: (شياطينهم: سادتهم وكبراؤهم ورؤساؤهم من أحبار اليهود، ورؤوس المشركين والمنافقين).(٤)

بل إن الدكتور محمد عزة دروزة يرى أن جمهور المفسرين قالوا بذلك(٥) ونقله عنه الدكتور عماد الدين خليل(٦)والله أعلم ٠

ومن خلال النكتة اللغوية التي أثارها الطبري في قوله: (وإذا خلوا إلى) والفرق بينها وبين

(وإذا خلوا بـ) يتبين أن الخلوة التي كانت تتم بين اليهود والمنافقين تمت لحاجة خاصة !!!

يقول الطبري موضحا ذلك: "فإن قال لنا قائل : أرأيت قوله (وإذا خلوا إلى شياطينهم) فكيف قيل: خلوا إلى شياطينهم ؟ ولم يقل : (خلوا بشياطينهم) ؟

فقد علمت أن الجاري بين الناس في كلامهم: (خلوت بفلان) أكثر وأفشى من (خلوت إلى فلان) ؟

---

(١) راجع التفسير والمفسرون د/ محمد حسين الذهبي صـ ٨٢، دار القلم . بيروت . لبنان د٠ت.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٩/١.
(٣) الإتقان ١٨٩/٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤٩/١ عن أبى مالك٠
(٥) السيرة النبوية لمحمد عزة دروزة ٢٦٥/٢،٢٦٤.
(٦) دراسة في السيرة صـ٣٧١ ، ومكائد اليهود صـ٩٤.

قيل: قد اختلف في ذلك أهل العلم بلغة العرب: فكان بعضهم يقول: يقال خلوت إلى فلان: إذا أُريد به خلوت إليه في حاجة خاصة، لا يحتمل إذا قيل كذلك إلا الخلاء إليه في قضاء الحاجة، فأما إذا قيل: خلوت به، احتمل معنيين: أحدهما الخلاء به في الحاجة، والآخر في السخرية به، فعلى هذا القول(وإذا خلوا إلى شياطينهم) لا شك أفصح منه لو قيل: وإذا خلوا بشياطينهم؛ لِمَا في قول القائل: إذا خلوا بشياطينهم من التباس المعنى على سامعيه الذي هو منتف عن قوله: (وإذا خلوا إلى شياطينهم)، فهذا أحد الأقوال.

والقول الآخر: أن توجيه معنى قوله: (وإذا خلوا إلى شياطينهم) أي: (خلوا مع شياطينهم) إذا كانت حروف الصفات يعاقب بعضها بعضا.

وقد ضَعَّفَ الطبري الرأيَ الأخير من الناحية اللغوية أيضا.(١)

وعلى أية حال فإن الخلوة التي وقعت بين المنافقين واليهود كانت لحاجات خاصة توضحها آراء المفسرين حول معنى (المعية) وهو المعنى الثاني الذي ستكون لنا معه الوقفة التالية:

إذا كانت المعية في اللغة بمعنى المصاحبة(٢) فإنها قد وردت في القرآن الكريم على معاني ثلاثة :

الأول: معية الله لعباده. الثاني: معية العباد لله تعالى. الثالث: معية الناس لما حولهم من الأحياء والأشياء.(٣)

ويهمنا في بحثنا هذا النوع الثالث، وهو معية الناس لمن حولهم من الأحياء والأشياء، ومثالها ما نحن بصدد الحديث عنه في تفسير قوله تعالى: (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم)، فعلى قول من قال: إن الشياطين هم اليهود، فلنا أن

---

(١) جامع البيان ١/١٠١ ، والكشاف ١/١٨٤، وتفسير القرآن العظيم ١/٤٩، وروح المعاني للألوسي ١/١٤٣.

(٢) (مع : اسم قد يسكن وينون ، أو حرف خفض ، أو كلمة تضم الشيء إلى الشيء وأصلها معا ، وهي للمصاحبة ... وتقول كنا معا أي: جميعا) القاموس المحيط للفيروز أبادي باب العين فصل الميم ٣/٨٥.

(٣) المدخل للتفسير الموضوعي صـ١٣١.

نتساءل: كيف كانت هذه المعية أو المصاحبة أو الخلوة بين المنافقين واليهود؟ يقول ابن إسحاق مبينا نوع هذه المعية ومضمونها: (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم) من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب بالحق، وخلاف ما جاء به الرسول، و(قالوا إنا معكم) أي: إنا على مثل ما أنتم عليه).(١)

وزاد الطبري -بعد ذكره عبارة ابن إسحاق السابقة- قالوا:(إنا معكم) على ما أنتم عليه من التكذيب بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبما جاء به ومعاداته، ومعاداة أتباعه).(٢)

وسبق أن أشرنا إلى قوله: (وظاهروهم -أي المنافقون ظاهروا اليهود- في خفاء غير جهار حذار القتل والسباء ... وركونا إلى اليهود؛ لِمَا هم عليه من الشرك، وسوء البصيرة بالإسلام).(٣)

وتظاهرت عبارات العلماء -بعد ذلك- في بيان ماهية المعية التي ربطت بين المنافقين واليهود في هذه المرحلة، وهي عبارات متقاربة تدور في غالبها على ما قاله ابن إسحاق والطبري آنفا.

غير إننا إذا أمعنا النظر في بعض منها وجدناها تكشف لنا عن جوانب مهمة لهذه المعية:

◈ فهي معية تقوم على العقيدة والعمل.(٤)

◈ وهي معية متبادلة (فهؤلاء المنافقون الذين يجبنون عن المواجهة، ويتظاهرون بالإيمان عند لقاء المؤمنين؛ ليتقوا الأذى وليتخذوا هذا الستار وسيلة للأذى... هؤلاء كانوا إذا خلوا إلى شياطينهم -وهم غالبا- اليهود الذين كانوا يجدون في هؤلاء المنافقين أداة لتمزيق الصف الإسلامي وتفتيته، كما أن هؤلاء المنافقين كانوا يجدون في اليهود سندا وملاذا...)(٥)

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٣١.

(٢) جامع البيان ١/١٠١.

(٣) تفسير المنار ١/ ١٦٣.

(٤) في ظلال القرآن ١/٤٥.

(٥) مكائد اليهود صـ ٨٧ بتصرف.

◈ وهي معية لا تتم ارتجالا، أو بصورة عفوية (وإنما كانت من جانب اليهود؛ لتمكن المنافقين المتصلين بهم من متابعة خطة النفاق) فهي تسير وفق تخطيط له مراحله.

◈ وكان لهذا التخطيط هدف، أو أهداف محددة من أهمها: (ما وجده اليهود في المنافقين خير عضيد لهم لمواجهة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وربما علقوا الأمل في استمرار نفوذهم على تمكن ابن أبي أن يصبح ملكا على أهل يثرب).(١)

◈ وكان لهذه المعية ذات التخطيط أثرها على المجتمع الإسلامي آنذاك(قد ظل خطر المنافقين على الدولة كبيرا ما ظل اليهود في المدينة، إذ أنهم كانوا على صلة دائمة بهم، بل إن اليهود هم الذين أزكوا النفاق في المدينة، فلما تم تطهيرها من اليهود ضعف أمر النفاق، وأصبح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يخشى خطر هذه الطائفة)(٢)

◈ ومن أخطر الآثار التي نتجت عن هذه المعية الهادفة أن اليهود شككوا في رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واحتضنوا المنافقين، وأمدُّوهم بالشبهات التي ينشرونها في الجو بالتُّهَم والأكاذيب، كحادث تحويل القبلة وغيره)(٣)، و(وإن أسباب المغالطات التي كان يروج لها اليهود بين سكان المدينة كانت من خلال هذا التجمع (بين المنافقين واليهود) على أهداف محددة ضد الإسلام ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)(٤)

كانت تلكم أهم جوانب المعية التي جمعت بينهما في هذه المرحلة التي شكلت واقعا تاريخيا نتكلم عنه فيما يلى:

❊ **الواقع التاريخي لهذه المرحلة:** هذه المرحلة التي تمتد من هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستقراره في المدينة حتى بعيد غزوة بدر في رمضان للسنة الثانية

---

(١) مجتمع المدينة المنورة في عهد الرسول . عبد الله إدريس صـ٦٨ مطابع جامعة الملك سعود ـ الرياض ١٣٩٩هـ.

(٢) دراسة في السيرة صـ٣٧٠.

(٣) التآمر اليهودي على حياة النبي صلى الله عليه وسلم د/سعد المرصفي صـ ٤٩ . مكتبة المنار . الكويت . الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ.

(٤) بنو إسرائيل في ميزان القرآن، صابر طعيمة صـ٣٥.

للهجرة، قد حفلت ببعض الأحداث التي كشفت عن مضمون المعية التي ربطت بين المنافقين واليهود ومن أهم هذه الأحداث:

أولا: تجسس المنافقين على المسلمين لصالح اليهود:

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود رضى الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾ [المائدة:٤٤] قال: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقا، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذلت كلتا الطائفتان كلتاهما لمقدم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلا، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا إلينا بمائة وسق، فقالت الذليلة: وهل كان هذا في حيين قط دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد، دية بعضهم نصف دية بعض؟

إنا أعطيناكم هذا ضيما منكم لنا، وفرقا منكم، فأما إذا قدم محمد فلا نعطيكم ذلك... فارتضوا أن يجعلوا محمدا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينهم، ثم ذكرت العزيزة فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، وما أعطونا هذا إلا ضيما... فدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه، إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه، فدسوا إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناسا من المنافقين؛ ليخبروا لهم رأي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما جاءوه أخبره الله الخبر كله).[١]

ويلاحظ من هذا ما يلي:

١. هذا النص يكشف عن طبيعة المعية التي ربطت بين المنافقين واليهود، وهو وإن كان ينصب في أساسه على مسألة دينية تتعلق بالإنصاف في القصاص، فإن للمنافقين مواقف تجسس أخرى تتعلق بأمور غيرها.[٢]

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢٤٦/١ ، جامع البيان ٢٤٣/٦ ، تفسير ابن كثير ٥٧٠/٢، ٥٨.

(٢) قال الصالحي في سبل الهدى والرشاد ٦٠٨/٤: نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾[التوبة:٦١] في نبتل بن الحارث جاسوس المنافقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم نذكرها هنا لأن ذلك كان في عهد متأخر عن هذه المرحلة لأن سورة التوبة من أواخر ما نزل من القرآن والله أعلم ، وقد أشار إلى مسألة التجسس أيضا الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة فقال: (كان اليهود يبثون أسئلتهم للنبي صلى الله عليه وسلم عن طريق المنافقين) خاتم النبيين ٧٩٤/٢ . ٨٠٠.

٢ ـ ومن الملاحظ أن هذه الرواية لم يرد فيها ذكر لأسماء أشخاص معينين من الفريقين مما يوحي أن التعاون بينهما في التجسس على المسلمين كان يتم في تكتم شديد وفق ما تقتضيه أعمال الجاسوسية وأهدافها، وقد حكم فقهاء الإسلام بالإجماع بحرمة التجسس على المسلمين لصالح أعدائهم.(١)

ثانيا: التشكيك في المنهج والقيادة من خلال حادث تحويل القبلة:(بعد ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا أمر الله رسوله أن يتحول في صلاته من قبلة بيت المقدس في الشام إلى قبلة بيت الله الحرام في مكة، وانصاع رسول الله والمسلمون لأمر ربهم إذ كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمل ذلك ويرجوه(٢) وأما المنافقون واليهود فقد ثارت ثائرتهم، وانطلقت ألسنتهم تنفخ في بوق واحد بالتشكيك في القرآن وفي الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد صور القرآن الكريم موقفهم هذا فقال سبحانه وتعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[البقرة: ١٤٢، ١٤٣]

ولئن كان بعض المنافقين يقومون بأعمال الجاسوسية سرا لصالح اليهود ولا يعلم ذلك إلا قليل من المسلمين؛ فإن هذا الابتلاء –بتحويل قبلة الصلاة– كان بمثابة الشمس الساطعة على هذا المجتمع الجديد الذي لا يتميز فيه المنافقون عن المسلمين، وكان هذا البلاء الكاشف الممحص في تحويل القبلة مظهرا لضغائن اليهود والمنافقين في آن واحد؛ (أما اليهود فقد أتى منهم نفر إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم:(رفاعة بن قيس ، وقردم بن عمرو، وكعب بن الأشرف، ونافع بن أبى نافع، ورافع بن أبي رافع وغيرهم فقالوا: يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك، ثم

---

(١) الاستخبارات العسكرية في الإسلام عبد الله مناصرة صـ ٢٢٣ . مؤسسة الرسالة . الطبعة الثانية . ١٤١٢هـ (بتصرف).

(٢) صرفت القبلة في رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة. انظر السيرة النبوية ٢/٥٥٠.

أشاعوا على إثرِ ذلك أنهم قالوا: قد عاد إلى طريقة آبائه، واشتاق إلى دينهم، ولو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون هو صاحبنا الرسول المنتظر المبشر به في التوراة).[١]

(وأما المنافقون فقالوا: ما بال محمد يُحَوِّلُنا مرة ها هنا ومرة ها هنا، وقصدوا من ذلك الطعن والاستهزاء، وزعموا أن التردد بين الجهات، وتمييز بعضها عن بعض ليس له دليل معقول، وأنه ضَرْب من العبث والتشهي)[٢]

(وانطلقت أبواق اليهود خاصة تُلْقِي في صفوف المسلمين وقلوبهم بذور الشك والقلق في قيادتهم، وفي أساس عقيدتهم... قالوا لهم: إن كان التوجه فيما مضى إلى بيت المقدس باطلا؛ فقد ضاعت صلاتكم طوال هذه الفترة، وإن كانت حقا؛ فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل، وضائعة صلاتكم إليه كلها، وعلى أية حال فإن هذا النسخ والتغيير للأوامر، أو للآيات لا يصدر من الله؛ فهو دليل على أن محمدا لا يتلقى الوحي من الله).[٣]

ونلاحظ في هذه الروايات مما يتناسب مع مرحلة المعية:

١ . إن الرواية الأولى قد حددت أسماء بعض اليهود الذين تولوا القيام بمهمة إشاعة الأكاذيب، وبثها في قلوب أهل المدينة تجاه الدين الجديد وبخاصة المسلمين منهم.

٢. كانت الأداة الأولى التي استخدمها اليهود في ذلك داخل الصف المسلم هم المنافقون الذين رددوا كلام اليهود؛ وذلك لأنهم لم يستوعبوا –بسبب الضعف الشديد في إيمانهم– هذا الابتلاء الذي يتبين معه مبدأ التجرد لله سبحانه وتعالى من كل آصرة سوى آصرة العقيدة في الله وحده الذي له المشرق والمغرب و(أينما تولوا فثم وجه الله).

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١٧٧ ، السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٥٠ ، جامع البيان ٢/ ٢٠ ، والتفسير الكبير للرازي ٢/صـ٣ (بتصرف).

(٢) جامع البيان ٢/ ٨ ، غرائب الفرقان ٢/ ٦ ، وسبل الهدى ٣/ ٥٣٨.

(٣) الروض الأنف ٤/١١٥، وروح المعاني ١/ ٣٢٦ ، وسبل الهدى ٣/٥٣٨ ، وفي ظلال القرآن /١٢٦ والنص منه.

٣. يعتبر موقف تحويل القبلة هو أول المواقف – فيما أعلم– الذي تحدث فيه المنافقون علانية، وسجلت الروايات أقوالهم دون ذكر لأسمائهم، وهو أول المواقف التي حددت بعض أسماء اليهود الذين قاموا بالتشكيك في مسألة تحويل القبلة. والله أعلم

ثالثا: الإرجاف بالنصر بعد غزوة بدر:

لم يتوقع المنافقون واليهود هذه الهزيمة النكراء لقادة جيش قريش على أيدي المسلمين في بدر، فقريش ومعها كثير من قبائل العرب التي تعادي المسلمين كانت تعتبر آنذاك عونا معنويا ومددا ماديا للمنافقين واليهود ضد المسلمين؛ ولذلك فقد كان دورهم بعد نصر المسلمين في بدر يتمثل في حرب نفسية لجيش المسلمين المنتصر علهم يُضعِفُون بعض المعنويات المتوثبة!

(فقد أرسل النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عبدَ الله بن رواحة بشيرا بالنصر لأهل العالية، وزيد بن حارثة بشيرا لأهل السافلة –وهما من أحياء المدينة–... وأركب زيد بن حارثة ناقته القصواء) ولننظر كيف تلقى المنافقون واليهود بشرى نصر المسلمين؟

أما اليهود فقال شاعرهم والناطق بلسانهم كعب بن الأشرف: (إن كان محمد قتل هؤلاء –يقصد صناديد قريش– فبطن الأرض خير من ظهرها!)

وأما المنافقون فقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فقد لقي أحدهم أبا لبابة فقال له: قد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون معه أبدا، قد قتل محمد وغالب أصحابه، وهذه ناقته عليها زيد لا يدري ما يقول من الرعب !! قال أسامة بن زيد : فبلغني ذلك –يقصد مقالة المنافق– فجئت حتى خلوت بأبي وسألته عما يقول الرجل، وقلت أحق ما تقول ؟ قال : إي والله إنه لحق ما أقول يا بني!! فقويت في نفسي، ورجعت إلى ذلك المنافق فقلت: (أنت المرجف برسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ... إذا قدم ليضربن عنقك)، فقال : إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه)(١)

ولنا من هذه الرواية عدة نتائج:

الأولى: مع إننا لا نرى في هذه الرواية ما يدل على اللقاء المباشر بين المنافقين واليهود، أو الاتفاق على أمر معين، أو التدبير على موقف موحد، مع ذلك فالهدف

---

(١) السيرة النبوية ٣/١١١، والنفاق والمنافقون . إبراهيم سالمً. صـ ٩٩ . دار الشعب . مصر . ١٣٨٩ هـ.

الذي قيلت من أجله عباراتهم واحد، وهو الإرجاف برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والحط من قيمة النصر الذي أحرزه المسلمون على كفار قريش، وهذا يؤكد لنا ما ذكرناه آنفا من تشابه نفسيٍّ كبير بين المنافقين واليهود من ناحية، ومن ناحية ثانية يؤكد أيضا المعية التي ربطت بينهما في الهدف، وإن كانت غير واضحة في الوسائل.

الثانية: إن قولة هذا الرجل المنافق قد آتت ثمارها فقويت في نفس أسامة حتى تشكك في كلام أبيه، فعاد ليسأله مرة ثانية ليؤكد منه نبأ النصر!!

سمات مرحلة المعية:

السمة الأولى: سبق أن ذكرنا قول الصالحي: (ولما قدم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة أسلم بشر كثير ممن أراد الله هدايته وانضاف إلى اليهود أناس من الأوس والخزرج ممن عسا في الجاهلية ...)[١]

وقد جعل الدكتور عماد الدين خليل العصبية القبلية سببا من أسباب نشأة النفاق بالمدينة[٢]؛ ولذلك فأرى والله أعلم . أن العصبية القبلية كانت هي المحرك الأساسي لأقوال المنافقين وأفعالهم في هذه المرحلة فتجسسهم على المسلمين، وأقوالهم في تحويل القبلة وإرجافهم بالانتصار في بدر يَنُمُّ بالدرجة الأولى عن تمسكهم بنزعاتهم القبلية، وكرههم الشديد لهذا الدين الجديد الذي يؤاخي بين المهاجرين والأنصار، ويرفع من شأن بلال، وعمار، ويحط من شأن ابن أبي –إلا إذا أسلم– ويجعل الميزان الذي يتفاضل به الناس هو التقوى لا النسب، ولا العائلة، ولا القبيلة ... إلخ ولا شك أن من يؤمن بالعصبية القبلية ميزانا للحياة –يرى جهلا منه– أن اليهود الذين عاشرهم قبل هجرة المسلمين إلى بلده أقرب إليه من أتباع الدين الجديد، فاليهود لم يحاولوا نشر ديانتهم اليهودية في قبائل العرب في المدينة أو غيرها، وإنما تركزت حركتهم في سعيهم الدائم للسيطرة على النواحي الاقتصادية، والتشدق بالمكانة الدينية بزعم أنهم أهل كتاب سماوي وغيرهم لا كتاب لهم ولادين.[٣]

---

(١) سبل الهدى ٢/٦٠٦ ، وانظر ما سبق صـ ١٣.

(٢) دراسة في السيرة صـ٣٦٣.

(٣) التاريخ اليهودي العام لصابر طعيمة ٢/١٠دار الجيل . بيروت . الطبعة الثالثة ١٤١١هـ (بتصرف).

السمة الثانية:

ويرى الدكتور محمد عزة دروزة (أن حركة النفاق في المدينة قد سارت مع الإسلام سيرا عكسيا؛ فكلما قوى المسلمون ضعفت، وكلما ضعف المسلمون قويت)[١]

ولا نسلم له بهذا القول في هذه المرحلة؛ لأن حركة النفاق كما رأيناها في هذه المرحلة بدأت -على الرغم من وصفنا لها أحيانا بالتخطيط والدقة وما إلى ذلك- ضعيفة ساذجة، لا يربط أفرادها رباط ولا يجمعهم قائد، إنما هو مجرد التقاء في حب العصبية القبلية، أو المصلحة الذاتية، أو الضعف النفسي، إذ لم نر- في هذه المرحلة- ذكرا لأسماء المنافقين فيما عرضناه من روايات، فلم يكن ابن سلول قد أسلم بعد.[٢]

في حين نرى أن المسلمين بمجرد استقرارهم بالمدينة بدأ الرسول ﷺ، في عقد معاهدة غاية في الدقة والقوة مع اليهود[٣]، وأخذت دعوة الإسلام تنتشر في المدينة وخارجها، وبدأ المسلمون في تجهيز قوتهم العسكرية التي أخذت تتحرش بأعدائها شيئا فشيئا، حتى وقعت الغزوات الكبرى بعد ذلك، وأما المنافقون فقد بدأت حركتهم ضعيفة وازدادت ضعفا بعد انتصار المسلمين في بدر ثم بدأت تقوى شيئا فشيئا بعد إسلام عبد الله بن أبي بن سلول، حتى ظهرت للعيان في غزوة أحد، وفي غزوة بني النضير، وفي غزوة الأحزاب وفي كل ذلك كانت قوتها تتزايد مع توثق علاقتها باليهود حتى غزوة تبوك فقد وصلت قوة المنافقين إلى التفكير ـ وبالتخطيط مع اليهود ـ في التخلص من النبي ﷺ وبناء مسجد الضرار.[٤]

السمة الثالثة:

لم يكن للمنافقين آنذاك قيادة تقودهم في علاقتهم باليهود، وتحدد لهم مواقفهم تجاه الأحداث التي يتعرض لها المجتمع المدني آنذاك؛ ولذلك أتت مواقفهم فردية وتأثيرها محدود لا يتعدى أفرادا أيضا، في حين سنرى في المراحل التالية ـ مع وجود

---

(١) السيرة النبوية لدروزة ٢/٧٥.

(٢) انظر إسلام ابن أبي فيما سبق صـ

(٣) سبق ذكر بعض بنودها الخاصة باليهود صـ١١.

(٤) سنرى ذلك في المرحلة الرابعة إن شاء الله.

عبد الله بن أبي الذي قام فيهم بدور القيادة ـ أن مواقفهم كانت جماعية، وأن تأثيرها كان ضخما.[١]

السمة الرابعة:

وتتسم هذه المرحلة أيضا ـ كما يرى الإمام محمد أبو زهرة ـ بسكوت اليهود ليتمكنوا من تكوين أول خلية يهودية تعلن إسلامها نفاقا !! يقول الإمام عن اليهود: "لقد سكتوا في السنة الأولى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أثر المعاهدة التي عقدها معهم، والموالاة التي أولاهم بها، ليكون منهم جماعة مندمجة معه وهي على دينها".[٢] وبذلك تتقوى علاقتهم بالمنافقين.

فلم يكن سكوت اليهود في هذه المرحلة ليتفهموا الدين الجديد، وإنما كان تكتما على تخطيط تبرز من خلاله جماعة منهم تنضم إلى الصف الإسلامي لتعرفه عن كثب، وتقدم نموذجا عمليا للنفاق يَحْتَذِي به ضعاف الإيمان فيمارسوه، ولذا فلا عجب أن يُعلن ابن أبي إسلامه بعد غزوة بدر ـ أي بعد وجود هذه المجموعة اليهودية المنافقة ـ ثم لا يمضي على إسلامه أشهر فيعلن عن علاقته القوية بيهود بني قينقاع على ملأ من الجميع فيحاول الدفاع عنهم عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.[٣]

---

(١) النفاق والمنافقون للحميدي صـ ٢٨، والمنهج الحركي للسيرة النبوية . منير الغضبان ٢٤٨/١.مكتبة المنار . الأردن الزرقا . الطبعة السادسة ١٤١١ هـ (بتصرف).

(٢) خاتم النبيين صـ ٧٩١/٢.

(٣) سنتحدث عن موقف ابن أبي من بني قينقاع في المرحلة القادمة إن شاء الله.

❋ المبحث الثالث: المرحلة الثانية (مرحلة الموالاة).

في كثير من المواضع تناول القرآن قضية الموالاة بين المسلمين وغيرهم، وفي مواضع خمسة تناول القرآن هذه القضية بين المسلمين وأهل الكتاب – اليهود منهم خاصة – وتفصيلها على النحو التالي:

١- في أربعة مواضع تناولت الآيات قضية الموالاة في سياق نهي المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، وورد في أسباب نزول هذه الآيات وبيان تفسيرها أن الذين مارسوا هذه الموالاة هم المنافقون، بينما المؤمنون تبرأوا منها وخلعوها:

***الموضع الأول:** في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[المائدة:٥١]

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[المائدة:٥٢]

***الموضع الثاني:** في السورة نفسها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٥٧]

***الموضع الثالث:** في سورة المجادلة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[المجادلة:١٤]

***الموضع الرابع:** في سورة الممتحنة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾[الممتحنة:١٣]

***وفي الموضع الخامس:** فإن الآية نصت على المنافقين الذين يوالون الكفار، ولم تذكر أهل الكتاب، وإن كان عموم لفظ الكفار يتناوله، وذلك في قوله سبحانه في سورة النساء: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النساء:١٣٨] ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[النساء:١٣٩]

*   *   *

ولنا حول هذه الآيات عدة مسائل :

◈ المسألة الأولى: في ترتيبها حسب أسباب النزول:

أول ما يلفت النظر في هذه الآيات هو ترتيب نزول السور التي وردت بها، ومناسبة هذا الترتيب للأحداث التي كانت سببا في نزولها، فإذا أخذنا بترتيب السيوطي الذي رواه عن ابن عباس؛ لكان ترتيبها على النحو التالي: (سورة الممتحنة، ثم سورة النساء، ثم سورة المجادلة، ثم سورة المائدة)[١]

لكن الأحداث المسببة لنزول هذه الآيات لا تساير هذا الترتيب؛ فالآيتان: الأولى، والثانية اللتان في سورة المائدة ـ آخر هذه السور نزولا حسب الترتيب السابق – ترتبطان بحادثة جلاء بني قينقاع في السنة الثانية للهجرة قبل غزوة أحد ومحاولة زعيم المنافقين عبد الله بن أبي التوسل عند رسول الله ﷺ من أجلهم لأنه يواليهم.[٢]

ـ وإذا أخذنا برأي القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) إلى قوله تعالى: (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) من سورة النساء بأن: (الكافرين هنا هم يهود بني قينقاع)؛ فتكون هذه الآية قد نزلت مع الآيتين السابقتين لحدث واحد، وفي زمن واحد.[٣]

ـ وأما آية سورة المجادلة: فإن هذه السورة قد تناولت بعض مواقف اليهود الخبيثة في تحيتهم للرسول وللمسلمين، ونجواهم بالإثم والعدوان، واليهود قد تم جلاؤهم عن المدينة بعد غزوة الأحزاب في السنة الخامسة للهجرة ، فهذا مما يرجح نزول هذه السورة قبل ذلك[٤]

(١) الإتقان في علوم القرآن ١/٢٦.

(٢) جامع البيان ٦/ ١٧٧ ، ١٧٨، ،وأسباب النزول صـ ١٩٩، والجامع لأحكام القرآن ٦/٢١٦ وما بعدها.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٤١٧.

(٤) النفاق والمنافقون للحميدي صـ ٣٠٦.

ـ وسورة الممتحنة يرتبط أولها بحادثة حاطب بن أبى بلتعة، وموقفه من فتح مكة؛ ولذلك فمن الراجح ـ والله أعلم ـ تأخر نزولها حتى السنة التاسعة سنة الفتح.(١)

وبهذا يكون الترتيب الذي نراه لهذه الآيات حسب أسباب نزولها كما يلي: آيتا سورة المائدة، ثم آية سورة النساء، ثم آية سورة المجادلة، ثم آية سورة الممتحنة، والله أعلم.

◈ المسألة الثانية: في وجه الاستدلال بهذه الآيات.

لو نظرنا في هذه الآيات ـ موضع الاستدلال ـ لرأينا أن الخطاب في ثلاث منها موجه للمؤمنين، وهن قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[المائدة:٥١] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[المائدة:٥٧] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾[الممتحنة:١٣]

وقد يقول قائل: ما وجه الاستدلال في الآيات والخطاب موجه للمؤمنين، لا للمنافقين ولا لليهود؟

والجواب : إن العلماء قد أجمعوا على أن الموالاة لم تقع من المؤمنين لليهود ولا للنصارى ولا لغيرهم من أعداء الإسلام، وإنما وقعت من المنافقين المنتسبين للإسلام ظاهرا؛ ولذلك وجب تحذير المؤمنين من هذا النوع من الموالاة لأعداء الله، وبخاصة أن المنافقين يشاركون المؤمنين في مسمى الإسلام، وإذا كانت الآيتان: الأولى والثانية قد نصتا على النهي عن موالاة اليهود والنصارى؛ فإن الآية الثالثة قد ذكرتهم بصفتهم، فاليهود هم المغضوب عليهم كما ذكر في القرآن في غير موضع، ونص على ذلك جمع من المفسرين.(٢) وعلى هذا تفهم آية سورة الممتحنة أيضا والله أعلم(٣)

---

(١) أسباب النزول صـ ٤٢١.

(٢) قال الله سبحانه وتعالى في حق اليهود: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[البقرة:٦١] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾[الأعراف:١٥٢] وراجع في ذلك جامع البيان ٢٨ /١٦ عن قتادة ، وابن زيد ، والكشاف ٤/ ٧٧ ، والقرطبي ٣٠٤/١٧ ، وابن كثير ٤/ ٣٢٧ ، والظلال ٦/ ٣٥١٣ (بتصرف).

(٣) راجع جامع البيان ٥٣/٢٨، والجامع لأحكام القرآن ٧٦/١٨ والكشاف ٩٥/٤. وغيرها(بتصرف).

وأما آية سورة النساء فقد أدخلها القرطبي . بتفسيره الذي ذكرناه آنفا لها . في الاستدلال بها على موالاة المنافقين لليهود.[١]

◈ المسألة الثالثة: في موالاة عبد الله بن أبي لليهود ونوعها.

تتحدث هذه الآيات عن الموالاة لليهود والنصارى، وفي بحثنا هذا نرى المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبى قد أعطوا ولاءهم لليهود ٠فأي نوع من الموالاة كانت منهم؟

الموالاة لغة: من والى يوالى ، ومعناه أن يلى أحد الأمرين الآخر ، والموالاة ضد المعاداة ، والولي ضد العدو، ووالى فلان فلانا إذا أحبه.[٢]

واصطلاحا: هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام، والكون مع المحبوبين ظاهرا وباطنا قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[البقرة:٢٥٧] فموالاة الكفار وغيرهم تعني التقرب إليهم، وإظهار الود لهم بالأقوال والأفعال والنوايا.[٣]

ولئن كان العلماء لم يختلفوا كثيرا في مفهوم الموالاة المنهي عنها على أنها المناصرة والتحالف والتودد والتحبب لأعداء الإسلام، فإن عباراتهم حول حكم من يواليهم جاءت متفاوتة:

* فمنهم من حمل قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[المائدة:٥١] على ظاهره، فاعتبر أن مَن يُوالي اليهود يكون حكمه حكمهم، وكذلك من يوالي غيرهم. يقول الطبري: "إن الله تعالى ذكره نهي المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارا أو حلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أنه مَن اتخذهم نصيرا وحليفا ووليا من دون الله ورسوله والمؤمنين فإنه منهم في التَّحزُّب على الله ورسوله وعلى المؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان".[٤]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤١٧/٥.

(٢) المفردات للأصبهاني صـ٨٨٦،٨٨٥.

(٣)) الموالاة والمعاداة لابن تيمية وسيد قطب . جمع وتقديم مروان كجك . دار الكلمة الطيبة . القاهرة الطبعة الثانية . ١٤١٢هـ ، والولاء والبراء . محمد القحطاني صـ٩١ . دار طيبة . مكة . الطبعة السادسة . ١٤١٣ هـ ، والإيمان . نعيم ياسين . صـ١٤٥.

(٤) جامع البيان ١٧٧/٦ ، ١٧٨.

* ثم يقول: "فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متول أحدا إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض، وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه، وصار حكمه حكمه؛ ولذلك حكم من حكم من أهل العلم لنصارى بني تغلب في ذبائحهم ونكاح نسائهم وغير ذلك من أمورهم بأحكام نصارى بني إسرائيل؛ لموالاتهم إياهم ورضاهم بملتهم ونصرتهم لهم عليها، وإن كان أنسابهم لأنسابهم مخالفة، وأصل دينهم لأصل دينهم مفارقا.[١]

* ويقول ابن حزم: "صح أن قول الله تعالى: (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) إنما هو على ظاهره بأنه كافر من جملة الكفار، وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين.[٢]

* ويقول ابن تيمية: "أخبر الله تعالى في هذه الآية - يقصد الآية السابقة أن متوليهم هو منهم ، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[المائدة:٨١] فدلَّ على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب، فالقرآن يصدق بعضه بعضا".[٣]

*ويقول القرطبي:"(ومن يتولهم منكم) أي: يعضدهم على المسلمين (فإنه منهم) بيَّن تعالى أن حكمه حكمهم، وهو يمنع إثبات الميراث للمسلم من المرتد، وكان الذي تولاهم ابن أبي، وهذا الحكم باق إلى يوم القيامة في قطع الموالاة ... ثم قال: (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) شرط وجوابه: أي لأنه خالف الله ورسوله كما خالفوا ، وجبت معادته كما وجبت معاداتهم، ووجبت له النار كما وجبت لهم، فصار منهم، أي من أصحابهم".[٤]

---

(١) المصدر السابق ١٧٩/٦.

(٢) المحلى لابن حزم ٣٥/١٣ . تحقيق حسن زيدان . مكتبة الجمهورية . مصر . ١٣٩٢هـ.

(٣) الإيمان لابن تيمية صـ١٤ المكتب الإسلامي. دمشق، د.ت.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢١٧/٦.

*لكن الإمام محمد عبده يرى في تفسير المنار أن الولاية المنهي عنها هي ولاية التناصر في الحروب يقول الإمام عن الآية: "فهذه الآيات نص صريح في كون النهي عن الولاية لأجل العداون، وكون القوم حربا، لا لأجل الخلاف في الدين لذاته".(١)

وكذلك الأستاذ سيد قطب لا يرى أن الولاية المنهي عنها في الآية تعني الردة عن الإسلام، والدخول في ديانتهم، وإنما الولاية المنهي عنها ههنا لا تتعلق بمعنى اتباعهم في الدين، وإنما هي ولاية التناصر والتحالف فقط .

يقول الأستاذ سيد قطب: "إن الولاية المنهي عنها هنا هي ولاية التناصر والتحالف معهم، ولا تتعلق بمعنى اتباعهم في دينهم، فبعيدا جدا أن يكون من المسلمين من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى في الدين، إنما هو ولاء التحالف والتناصر الذي كان يلتبس على المسلمين أمره فيحسبون أنه جائز لهم بحكم ما كان واقعا من تشابك المصالح والأواصر، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام، وفي أوائل العهد بقيام الإسلام في المدينة حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله، يوضح ذلك قوله بشأن المسلمين الذين لم يهاجروا من مكة إلى المدينة مع من هاجر: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾[الأنفال:٧٢] أي: ولاية التناصر والتعاون، وليس ولاية الدين".(٢)

وأرى –والله أعلم– أنه يمكن الجمع بين كلام علمائنا الأجلاء وكلام الأستاذ سيد قطب من وجوه:

الوجه الأول: إن علماءنا (الطبري، وابن حزم، وابن تيمية، والقرطبي) قد حملوا الآية على ظاهرها، ورأوا أن الموالاة المذكورة في الآية محل الإشكال إنما هي متابعة لليهود والنصارى، وردة عن الإسلام، ولنا على ذلك ملحظان:

١- إن الآية تخاطب المؤمنين، وقد فرَّق جمع من العلماء بين الإيمان والإسلام(٣)؛ وعليه فخطاب المؤمنين يختلف عن خطاب المسلمين، فيما سيترتب على كل من الفريقين من أحكام.

---

(١) تفسير المنار صـ٤٢٦.

(٢) في ظلال القرآن ٢/٩٠٩.

(٣) جامع العلوم والحكم ابن رجب الحنبلي صـ٢٩ . دار الريان للتراث . القاهرة . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٢- إن هناك فرقا بين أحكام المنافق وأحكام المرتد، ولم يقل أحد من المفسرين - فيما أعلم - أن الآية نزلت في المرتدين.

الوجه الثاني: إن سيد قطب قد حمل الضمير في قوله: (منكم) على المنافقين، واتسع بمعنى الموالاة، واستدل بنهي المسلمين عن موالاة المسلمين الذين لم يهاجروا؛ ولذلك فمن يتولى اليهود والنصارى في رأيه فهو منافق.(١)

الوجه الثالث: إن ذكر عبد الله بن أبي في كلام القرطبي كمثال على المتولي لليهود الذي تنطبق عليه أحكام المرتد الذي لا يرثه المسلمون فيه إشكال ولا يَسْلَم من المنازعة، فإن هذا الحكم يعني منع عبد الله بن عبد الله بن أبي من ميراث أبيه، وهذا لم يقل به أحد -فيما أعلم- على الرغم من أن أباه كان أظهر المنافقين موالاة لليهود؛ ولذلك وجب التفريق بين صورتين من الموالاة:

** موالاة تؤدى إلى ردة عن الإسلام وتبرؤ منه، واتخاذ اليهودية أو النصرانية أو غيرهما ديانة دون الإسلام، ولم يفعل ابن أبى ذلك.(٢)

** وموالاة بمعنى المناصرة والمحالفة والمحبة القلبية لليهود وللنصارى أو لغيرهم من أعداء الإسلام مع كتمان ذلك وعدم إعلانه، وإعلان الإسلام نفاقا، وموالاة ابن أبي كانت . والله أعلم . من هذا القبيل.

وقد كان هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يختلف مع من يوالي أعداء الإسلام على الصورة الأولى عمن يواليهم على الصورة الثانية، فهديه مع عبد الله بن سعد بن أبي السرح الذي ارتد بعد إسلامه، وحاول التوبة في فتح مكة، يختلف عن هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع عبد الله بن أبي الذي والى اليهود علانية في غزوتي بني قينقاع وبني النضير، فالأول أعلن ردته وتبرؤه من الإسلام، وأما الثاني فقد كان يلجأ إلى

---

(١) راجع: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان، (٤/٢٩١)، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، ١٤٢٠هـ.

(٢) الولاء والبراء في الإسلام صـ ٩١ دار طيبة . مكة المكرمة . الطبعة السادسة ١٤١٣هـ(بتصرف).

الحلف والكذب والنفاق، ويفعل ما يفعله وينكر، ويعلن أنه من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذلك رفض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قتله لهذا الاعتبار.(١)

الوجه الرابع:

أن ابن القيم قد ذكر في الآيات وجها آخر فقال: "إن الله قد حكم –ولا أحسن من حكمه– أنه من تولى اليهود والنصارى فهو منهم (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) فإذا كان أولياؤهم منهم بنص القرآن كان لهم حكمهم، وهذا عام خُصَّ منهم من يتولاهم، ودخل في دينهم بعد التزام الإسلام، فإنه لا يقر ولا تقبل منه الجزية، بل إما الإسلام، وإما السيف؛ لأنه مرتد بالنص والإجماع، ولا يصح إلحاق من دخل في دينهم من الكفار قبل التزام الإسلام بمن دخل فيه من المسلمين...) إلخ(٢)

وعلى هذا تُفهَم عبارات علمائنا جميعا؛ فمنهم من حمل الآية على العموم، ومنهم من حمل الآية على الخصوص، فمن حملها على العموم رآها تشمل المرتدين والمنافقين، ومن حملها على الخصوص رآها تُحمل على المنافقين دون غيرهم والله أعلم.

الواقع التاريخي لهذه المرحلة:

الموقف الأول:

دفاع المنافقين عن يهود بني قينقاع:

يذكر المفسرون وعلماء السيرة أن قوله سبحانه وتعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء...) الآية، إلى قوله تعالى (فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين) نزل بسبب زعيم المنافقين عبد الله بن أبي في دفاعه عن يهود بني

---

(١) قصة ابن أبي السرح: راجعها بتمامها، وما فيها من أحكام في كتاب (الصارم المسلول على شاتم الرسول . ابن تيمية. صـ ١٠٩ .١١٦ ، ١١٨ ، ٤٠٨ ، وأما هديه مع المنافقين ففي صـ ٢٢٤ ، ٣٢٧، ٣٤٥ وغيرها . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . عالم الكتب . بيروت ١٤٠٣هـ وراجع زاد المعاد ٣/صـ١٢٣(بتصرف).

(٢) حقوق أهل الذمة في الإسلام لابن القيم ٦٧،٦٩/١ . تحقيق: صبحى صالح . جامعة دمشق . طبعة أولى . ١٣٨١هـ، والولاء والبراء ٢٣٤.

قينقاع، ونجمل هذا الموقف فيما يلي: (بعد غزوة بدر جمع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهود بني قينقاع في سوقهم[1] وقال لهم: (يا معشر يهود، احذروا مثل ما أُنزل بقريش من النقمة -أي ببدر- وأسلِموا؛ فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم) فأخذهم العناد والغرور وقالوا: لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة ، وإنا والله لئن حاربناك لتَعْلَمَنَّ إنا نحن الناس! فأنزل الله سبحانه وتعالى في ذلك قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[آل عمران:١٢]

وبعد أيام من دعوة النبي لهم وردهم القبيح عليه، أتت امرأة مسلمة بجلب لها تبيعه في سوقهم، فجلست إلى صائغ منهم لتبيع له، وبعض اليهود وقوف عنده، فراودوها على كشف بعض ثيابها فأبت، فعمد أحدهم إلى ثوبها من خلفها -وهي لا تشعر- فعقده إلى ظهرها وخله بشوكة.

فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، فشد اليهود على المسلم فقتلوه، فوقع الشر بين المسلمين ويهود بني قينقاع، فلما بلغ الخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاصرهم خمس عشرة ليلة، وعند ذلك تدخل لهم زعيم المنافقين ابن أبي وتشبث بأمرهم، ودافع دونهم قائلا: أربعمائة حاسر، وثلاثة مائة دارع منعوني الأسود والأحمر، تحصدهم في غداة واحدة؛ والله لا آمن، وأخشى الدوائر"، وكانوا حلفاء له، ولعبادة بن الصامت أيضا، أما عبادة فخلع حلفهم، وتبرأ منهم، وقال: (يا رسول الله، أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين) وأما عبد الله بن أبي فقال: (لكني لا أبرأ من ولاية يهود..)، فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله :(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء...) وأنزل في عبد الله بن أبي ومن معه:(فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) الآيات.

---

(١) في تاريخ الطبري٢/٤٧٩ . والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية صـ ٣٦٩ ورجح أنها في شوال من السنة الثانية للهجرة د/ مهدى رزق الله . مركز الملك فيصل للبحوث . الطبعة الأولى . ١٤١٢هـ

وقبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -لاعتبارات متعددة لا مجال لذكرها- شفاعة ابن أبي فيهم، ووافق على جلائهم من موطنهم إلى حيث شاءوا...)[١]

ولنا مع هذا السياق وقفتان:

الأولى: شكك الطبري في أن يكون موقف عبد الله بن أبي السابق من بني قينقاع سببا في نزول الآيات آنفة الذكر فقال: "وقد يجوز أن تكون الآية في شأن عبادة بن الصامت، أو عبد الله بن أبي أو أبي لبابة، أو غيرهما، ولم يصح بواحد من هذه الأقوال الثلاثة خبر يثبت بمثله حجة فيسلم بصحته، والصواب أن يُحْكَم لظاهر التنزيل بالعموم".[٢]

ولا ننكر أن حمل الآية على العموم أولى، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[٣] ولكن ما الذي يمنع أن يكون ابن أبي سببا في نزولها مع كونها عامة تتناول موقفه، وموقف كل من يفعل فعله إلى يوم القيامة؟

ولذلك؛ ولِمَا لدور ابن أبي الذي يمثل المنافقين آنذاك من أهمية بارزة، إذ ترتب على موقفه هذا نجاة قبيلة يهودية بأكملها، فإننا سنناقش الطبري في تشككه هذا من خلال أقواله هو نفسه، والروايات التي ذكرها بعد ذلك:

أولا . قال الطبري في معرض تفسيره للآيات التي ذكرتها آنفا: "غير أنه لا شك أن الآية نزلت في منافق كان يوالي يهود أو نصارى؛ خوفا على نفسه من دوائر الدهر؛ لأن الآية التي بعدها تدل على ذلك، وذلك قوله: (فترى الذين في قلوبهم مرض ...) الآية

(١) هذا السياق مختصر من المصادر التالية : الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/٢٨، ٢٩، مغازي الواقدي ١/١٧٦، ١٧٧ ، تاريخ الطبري ٢/٤٧٩ ، جامع البيان ٦/١٧٧،١٧٦ ، الروض الأنف ٤/٣٥٤ ، السيرة النبوية لمهدي رزق صـ ٣٦٩ ، دراسة في السيرة النبوية صـ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، والتاريخ اليهودي العام لصابر طعيمة . صـ/٣٠ دار الجيل . بيروت الطبعة الثالثة ١٤١١هـ ، وغير ذلك.

(٢) جامع البيان ٦/ ٧٧ .

(٣) الإتقان ١/٩٦.

ولا يمنع أن يكون المنافق المقصود في الآية هو ابن أبي؛ وبخاصة إذا كان الطبري قد ذكر ذلك بإسناد صحيح:

فقد روى الطبري عن يونس بن بكير، عن ابن إسحاق ، عن إسحاق بن يسار ،عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: (فترى الذين في قلوبهم مرض) يعني عبد الله بن أبي: (يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة)؛ لقوله : إني أخشى دائرة تصيبني)[١]

فهذا الأثر مرويٌّ عن يونس بن بُكير وهو صدوق، ومحمد بن إسحاق مختلف فيه والأرجح توثيقه، وإسحاق بن يسار ثقة من الطبقة الثالثة ،وعبادة بن الوليد بن الصامت ثقة من الطبقة الرابعة.[٢]

وأما المصادر التي نصت على وجود عبد الله بن أبي بن سلول في هذه الوقعة وشفاعته عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليهود بني قينقاع فكثيرة جدا.[٣]

وبعد ذلك فقد ثبت تاريخيا أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أجلى بني قينقاع، ولم يقتل منهم أحدا وأن هناك سببا لجلائهم دون قتل، وقد ذكر الطبري في تاريخه أن ابن أبي هو السبب في ذلك.[٤]

الوقفة الثانية: وهي شبهة قد تُثار من قِبل بعض المنافقين، فيقول: إن تمسك عبد الله بن أبي بحلفه مع اليهود شيء يُقِرُّه الشرع، بل ويحض عليه، فهو لا يعدو أن يكون وفاء بالوعد، فكيف ترى ذلك موالاة لليهود؟ وكيف يكون موقف عبادة بن الصامت في خلعه حلف اليهود، ونقضه عهدهم فيه موالاة لله ولرسوله والمؤمنين؟

---

(١) جامع البيان ١٧٨/٦، ١٧٩.

(٢) في مقدمة السيرة النبوية لابن هشام رد المحققون الأساتذة (مصطفي السقا ، وإبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي على كل المطاعن التي ذكرها الطاعنون في ابن إسحاق ووصلوا به إلى درجة التوثيق) راجع مقدمة السيرة ١٥/١ ، ١٦ ، ١٧، وترجمته في سير أعلام النبلاء ١٣٩/٧ ، ١١٦/٦ ، ١٤١/٧ ، وميزان الاعتدال للذهبي ٤٦٩/٣.

(٣) انظر ما سبق صـ ٢٩، ٣٤.

(٤) تاريخ الطبري ٤٧٩/٢، ٤٨٠.

والجواب على ذلك فيما يلي:

❋ **أولا:** إن عبادة بن الصامت خلع حلفه مع اليهود، وتبرأ منهم؛ طاعة لله ولرسوله بعد نزول أمر الله بذلك فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ ومسارعة في طاعة رسول الله ﷺ، وكان هذا بعد أن نقض اليهود عهدهم مع رسول الله ﷺ على نحو ما بيَّنَّا آنفا[1]، ولما كان ذلك كذلك؛ كان تمسك ابن أبي بحلفه معهم –بعد نقضهم عهد رسول الله ، ونزول النهي الإلهي عن موالاتهم – يعتبر معصية لله ولرسوله وموالاة لغيرهما.

❋ **ثانيا:** يقول الأستاذ محمد عزة دروزة ردا على هذه الشبهة: (إن المنعي عليهم هم فريق من المنافقين، فقط الذين وقفوا منذ بدء الهجرة موقف الكيد والمكر والتآمر، في حين أن تلك العهود والمواثيق كانت بين اليهود وسائر بطون الأوس والخزرج ، ومعنى هذا أن المسلمين المخلصين استجابوا لتحذير القرآن والنبي ﷺ، وإذا كان بعض المسلمين تأخر في نفض يده من الولاء للحلف بينه وبين اليهود، فإن الذين جاهروا بالتمسك به ولم يعبئوا بالتحذير والنهي بوقاحة وإصرار وتمرد هم المنافقون فقط، وهذا يدل بصراحة وقوة على أن الباعث لهم على هذا الموقف ليس الإخلاص للحلف، وإنما ما جمع بين اليهود وبينهم من وحدة البغض والكيد للإسلام ونبيه، وما توطد بين الفريقين من تواثق وتضامن وتآمر على النكاية بهما، ولا يصح من قبيل الوفاء بالعهود، ولو أن المنافقين كانوا يعتذرون بذلك)

❋ **ثالثا:** ويقول أيضا: (إن المواقف التي حكاها القرآن عن اليهود من شأنها أن تكون نقضا من جانبهم لتلك العهود والمواثيق، كما قال سبحانه: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[البقرة:١٠٠] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[الأنفال:٥٥] ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾[الأنفال:٥٦] والآيات مما نزل مبكرا، فدعوة القرآن إلى عدم موالاتهم

---

(١) انظر: ص: ٣٥.

واتخاذهم بطانة، وتحذيره من ذلك هي شيء طبيعي لا تَمَحُّلَ فيه إلا لمكابر أو مغرض)[(١)]

الموقف الثاني: التخطيط بين المنافقين واليهود لهزيمة الجيش المسلم في غزوة أحد[(٢)]

بعد حول على جلاء بني قينقاع، وإعلان زعيم المنافقين عبد الله ابن أبي عن ولائه لهم ودفاعه عنهم على ملأ من المسلمين؛ عزم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عقد مجلس شورى ليرى فيه الرأي في مواجهة قريش التي أتت بخيلها ورجلها؛ لغزو المدينة واستئصال المسلمين، وعسكرت بجيشها عند جبل أحد على مقربة من ديار المدينة، وكان ابن أبي من كبار رجال الخزرج، وله من الاعتبارات السياسية والأمنية والأدبية في الجاهلية والإسلام – إذ كاد أن يكون ملكا على الأوس والخزرج في الجاهلية، وهو أبو الصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله بن أبي ، في الإسلام – ما يجعله من بين المستشارين في مواجهة الغزاة، وكان رأيه أن يتحصن المسلمون بالمدينة، ولا يخرجون لملاقاة العدو ومعه على ذلك بعض المسلمين ، وكان رأي غيره ممن لم يحضر بدرا أن يخرجوا لملاقاة العدو حيث نزل خارج ديار المدينة عند أحد ، وبعد مشاورات أخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرأي الثاني وعزم على الخروج، فلبس لأْمَة الحرب وخرج بالجيش لقتال قريش عند جبل أحد.

في الطريق سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوجود كتيبة يهودية خشناء لها زجل مكونة من ستمائة مقاتل من حلفاء ابن أبي، تريد أن تلتحق بجيش المسلمين لتقاتل معه ضد الغزاة ، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أو قد أسلموا ؟ قيل: لا. قال: ((لا نستعين بالمشركين على المشركين)) وأبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبولهم في جيشه.

وسار جيش المسلمين المكون من ألف مقاتل حتى أقترب من جبل أحد، وتراءى الجيشان: جيش المسلمين وجيش الكافرين. وعند ذلك انخذل عبد الله بن أبي بثلث جيش المسلمين – وهم المنافقون الذين يأتمرون بأمره – قائلا: (أطاعهم وعصاني،

---

(١) السيرة النبوية د/محمد عزة دروزة ٢/١٨٢، ١٨٣

(٢) اتفق كُتَّاب السيرة على أنها كانت في شوال من السنة الثالثة للهجرة ، راجع السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية صـ٣٧٩.

ارجعوا أيها الناس، فإنا لا ندري على أي شيء نقتل أنفسنا ؟ فنزل قوله سبحانه وتعالى في ذلك: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[آل عمران:١٦٧]

ولما انتشر خبر انخذاله هو وأتباعه؛ وقع الخلاف بين مجموعتين من جيش المسلمين، فقد رأت إحداهما أنه لا بد من قتال ابن أبي ومن معه على انخذالهم؛ لأنهم خانوا الله ورسوله والمؤمنين في وقت مواجهة العدو، وطائفة رفضت ذلك ورأت أن قتال قريش وجيشها أولى من تأديب المنافقين وزعيمهم ، ولولا عصمة الله سبحانه للطائفتين معا؛ لكاد عِقد الجيش أن ينفرط، وقوته أن تتفتت قبل نشوب المعركة مع عدوه ، ونزل القرآن عاتبا على هاتين المجموعتين فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾[النساء:٨٨][(١)]

ويكفينا هذا القدر المختصر من غزوة أحد فهو الذي يناسب المقام؛ وذلك لكشفه عن علاقة المنافقين وزعيمهم ابن أبي باليهود.

(عناصر الخطة بين المنافقين واليهود)

أتصور – والله أعلم – كما تشهد بعض نصوص السيرة لهذا التصور –أن خطة تم الاتفاق عليها بين المنافقين واليهود قبل هذه الغزوة تتمثل عناصرها فيما يلي:

❋ **أولا:** لا يخرج المنافقون من المدينة ويكون هذا اقتراح ابن أبي، فإذا حاصرها المشركون كانت الخيانة من قِبَلهم أو من قبل اليهود أو منهما جميعا.

---

(١) هذا السياق مختصر من المصادر التالية :(الطبقات الكبرى ٣٩/٢ ،والسيرة النبوية لابن هشام ٩١/٣، ٩٢، ٩٣ ، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري٢٣٢/٥، ٢٣٣ ، جامع البيان ٤٥،٤٦/٤ ، تاريخ الطبري ١١/٣ ،دلائل النبوة للبيهقي ٢٠٨/٣ ،الكشاف للزمخشري ٤٧٢/١ ،تفسير ابن كثير ٤٣٨/١ ،الجامع لأحكام القرآن ٢٤٢/٤ ،روح المعاني ١١٨،٩٤/٤ ، تفسير المنار ١٨٦/٤ ،١٨٨ ، في ظلال القرآن ١١٠/٢ ... وغيرها، وخبر الكتيبة اليهودية ورد في : المستدرك للحاكم ١٢٢/٢ ،وسنن البيهقي ٣٧/٩ ،والطبراني في مجمع البحرين ٢٢٣/٢، وابن هشام ٩٣/٣ ومغازي الواقدي ٢١٥/١ ،٢١٦ ، راجع السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، وقد قواه بالمتابعات والشواهد صـ٣٨٢)

❋ **ثانيا:** إذا فشلت المحاولة السابقة، فالخطة التالية تتمثل في إرسال كتيبة يهودية مكونة من ستمائة مقاتل بالسلاح والعتاد، وتكون تحت إمرة ابن أبي، ويكون عدد جيش المسلمين بانضمامها ألف وستمائة مقاتل، فإذا انخذل ابن أبي بأتباعه والكتيبة اليهودية التي تحت إمرته كان المنخذلين أكثر من الثابتين، وتكون بذلك قاصمة الظهر للجيش المسلم عندما يرى أكثر من نصفه ينخذل عن القتال عند مواجهة العدو.

❋ **ثالثا:** فإذا لم تنجح المحاولة السابقة فليقم ابن أبي بنفسه بعملية الانخذال عن الجيش في الوقت الحرج ، وفي كل الأحوال السابقة فلابد من نجاح خطة من هذه الخطط، وتكون نتيجتها ولا شك مؤثرة سلبا في الجيش الإسلامي.

❋ **رابعا:** فإذا كان كذلك فلابد أن تكون هناك حرب إعلامية على هذا الجيش، فإن انتصر فبالإرجاف – كما حدث في بدر[١]–وإن هُزِم فبالطعن في الإسلام وفي نبيه وفي المسلمين.

وهذا تصور اجتهادي قابل للصواب في بعض جوانبه، وللخطأ في البعض الآخر، إلا أن هناك بعض نصوص السيرة الخاصة بجوانب هذه المواقف تجعلنا لا نستبعد صحته، أو صحة جوانب كبيرة منه ونجد هذه الإشارات فيما يلي:

١– الطريقة التي أسلم بها عبد الله بن أبي طريقة تُوحي أنها لم تكن عادية كإسلام غيره من عظماء المسلمين، فقد روى البخاري أن ابن أبي قد أسلم بعد انتصار المسلمين في غزوة بدر قائلا لمن حوله: (هذا أمر قد توجه فأعلن إسلامه)[٢]

وهذه العبارة توحي أن الرجل كان يعيش حالة تربص بالدين الجديد؛ ليرى مدى ثباته في مصارعة أعدائه ، فلما رأي أن الإسلام ينتصر على زعماء قريش وسدنة الوثنية ، وبدأ في مناوشة أعدائه في المدينة من اليهود الذين نقضوا العهد وسخروا من النبي المرسل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ ابن أبي في التفكير للاحتياط لنفسه، ولمن يأتمر بأمره من الأحداث القادمة فليكونوا مع المنتصر وهو الدين الإسلامي الذي يقبل من

---

(١) راجع ما سبق صـ٦.

(٢) صحيح البخاري٦/٣٤ كتاب التفسير.

الناس علانيتهم، ويَكِلُ سرائرهم إلى الله – ولا ينقطعوا في علاقاتهم بأعدائه سرا، بل ولا علانية إذا دعتهم الظروف إلى ذلك.

٢- بل إن محمد بن إسحاق يذهب إلى أبعد من ذلك فينص على أن ابن أبي قد أسلم كارها بعد أن رأي الناس يتجهون للإسلام.[١]

٣ – وطريقة ابن أبي في إسلامه ، وكلام ابن اسحاق عن الشك في هذا الإسلام الذي أعلنه يترجمه ابن أبي في صورة واقعية مؤكدة في دفاعه عن بني قينقاع وتوليهم دون الله ورسوله والمؤمنين ، وإعلانه آنذاك (أنه رجل يخشى الدوائر)[٢] ويؤكد ما ذهبنا إليه من أن إسلامه لم يكن إيمانا بالإسلام وحبا له ، ولنصرته على أعدائه وإنما كان مخادعة سياسية ممجوجة يحاول بها أن يُرضي الجميع، ويرضى عنه الجميع ، لكن الإسلام لا يقبل النفاق ولا الرياء.

– لقد نصت بعض كتب السيرة على أن الكتيبة اليهودية التي أشرنا إليها في الرواية السابقة كانت من أحلاف ابن أبي[٣]، ولم أستطع الوصول إلى معلومات أكثر من ذلك عنه ، وكنت أتمنى لو أجابتنا المصادر عن تساؤلات عدة بخصوصها:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٥٥ .

(٢) انظر ما سبق: ص:٣٥..

(٣) خبر الكتيبة اليهودية والحديث الوارد بها راجعه في المصادر التالية: (طبقات ابن سعد ٢/٣٩، ٤٨،والمستدرك ٢/١٢٢،ومجمع البحرين للطبراني ٢/٢٢٣ ، مجمع الزوائد للهيثمي ٦/٢٠٣والسيرة النبوية لابن هشام ٣/٩٣، شرح المواهب اللدنية للقسطلاني ٢/٢٥ ، وامتاع الأسماع للمقريزي صـ١١٨، وسبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/٢٧٧ ، وقد خرجه الدكتور مهدى رزق الله في كتابه السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية صـ٣٨٢ حاشية رقم (٢٢) وقد حقق الدكتور أكرم ضياء العمرى مسألة استعانة النبي صلى الله عليه وسلم باليهود فذكر أن هناك ستة أحاديث تشير إلى استعانة النبي صلى الله عليه وسلم باليهود في بعض غزواته ولكنه تتبع أسانيدها فضعفها جميعا وبين ما في سلاسل أسانيدها من مجهولين ,و ضعفاء ، وذكر الحديث المذكور في هذا الأثر عن الكتيبة اليهودية ورفض النبي صلى الله عليه وسلم الاستعانة بالمشركين ، ورجح صحته لصحة إسناده، بل وعلل عرض اليهود المشاركة في هذه الغزوة (لأنهم أرادوا التأكيد بالأحلاف التي تربطهم بالأوس والخزرج للإفادة من هذه الصلة في الوقيعة بين المسلمين وتخذيلهم، وغلغلة النفاق بين صفوفهم ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم قطع عليهم الطريق برفض معونتهم)، راجع في ذلك كتاب المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى . د/ أكرم ضياء العمري . صـ١٢٣ . ١٢٦مكتبة المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية . المدينة المنورة . الطبعة الأولى . ١٤٠٣هـ

ـ فمن أي القبائل اليهودية كانت هذه الكتيبة، فبنو قينقاع قد تم جلاؤهم قبل غزوة أحد، ولم يكن بنو قريظة من حلفاء ابن أبي ، فهل كانت هذه الكتيبة من بني النضير؟ ربما!

ـ ومن الذي أعطى الأمر بتكوينها وتسليحها وانضمامها للجيش الإسلامي؟ هل هو اليهودي حيي بن أخطب زعيم بني النضير، والذي أعلن عداوته لمحمد بعد أول لقاء بينهما؟

ـ وكيف يتم إعداد كتيبة يهودية بهذا الحجم الضخم الذي يزيد عن نصف جيش المسلمين آنذاك دونما إعلان من اليهود عن مساعدة الرسول ﷺ في هذه الغزوة ؟

ـ إن أمر كتيبة يهودية بهذا الحجم مقدمة على القتال مع المسلمين ضد قريش ـ إذا فرضنا أن ذلك حسب المعاهدة المبرمة بينهما ـ ما كان لكتب السيرة أن تُغفل تفاصيل الاتفاق عليها حتى يفاجأ الرسول بوجودها ويأمر بردها؟

ـ ولأن ذكر هذه الكتيبة في كثير من كتب السيرة والحديث دونما إجابة على ما ذكرناه من تفاصيل فليس لذلك من تعليل –من وجهة نظري سوى– أن تكون هذه الكتيبة قد وضع لها تخطيط محدد من قبل اليهود والمنافقين، وقد تم إحباطه برفض الرسول ﷺ قبولها في جيش المسلمين، فليس من طبيعة اليهود أن تخرج منهم كتيبة مسلحة لمساندة جيش الإسلام ضد قريش ـ التي يرونها أقرب لهم من المسلمين ويقولون عنها: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾[النساء:٥١] بصورة عفوية مرتجلة لا تخطيط لها ولا هدف!!

٥. لا تذكر المصادر ـ فيما أعلم ـ رأيا لابن أبي، ولا لغيره من المنافقين في رفض النبي ﷺ الاستعانة بالكتيبة اليهودية آنفة الذكر، وذلك ـ فيما أظن لأمرين:

ـ لأن الحجة الدينية التي ذكرها النبي ﷺ في رد هذه الكتيبة لا يمكن مناقشتها، لا من ابن أبي ولا من سواه.

ـ إن اعتراض ابن أبي على عدم اشتراك هذه الكتيبة قد يكشف خطته مع اليهود ، وإنما كان رده على ذلك بصورة عملية وهو انخذاله بثلث الجيش في وقت المواجهة.

٦. ولم يكتف المنافقون واليهود بما سبق وإنما انطلقت السنتهم بحرب إعلامية غاية في الشراسة على الجيش المسلم بعد غزوة أحد، فقد (أخذ المنافقون عند بكاء المسلمين في المكر والتفريق عن رسول الله ﷺ، وتحزين المسلمين)، وأما اليهود فقالوا: (لو كان نبيا ما ظهروا عليه، وما أصيب منه ما أصيب، ولكنه طالب ملك تكون له الدولة وعليه، وقال المنافقون مثل قولهم، وقالوا للمسلمين: لو كنتم أطعتمونا ما أصابكم الذي أصابوا منكم)[1]

٧. وأخيرا فإن شخصية ابن أبي آمر المنافقين وزعيمهم، قد ظلت على وفاء وحب وود لليهود حتى الرمق الأخير من حياته، فعند موته وقد حضره النبي ﷺ، فقال له: (قد نهيتك عن حب يهود) فيجيب ابن أبي وهو في لحظات الاحتضار:

(قد كرههم سعد بن زرارة فمات!)[2]

فابن أبي لا ينكر حبه ليهود حتى الرمق الأخير من حياته، وفي حضرة النبي ﷺ فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أنه ومن معه من المنافقين في علاقتهم باليهود كانت أعمق وأوثق من مجرد التحالف الظاهري! والله أعلم.

وبعد هذه الأدلة لا نرى وجها لقبول الحجة التي ساقها المستشرق (مونتجمرى وات) لانسحاب ابن أبي وانخذاله من جيش المسلمين إذ يقول وات: (ويمكن القول بأنه انسحب بالاتفاق مع محمد للدفاع عن المكان الرئيسي ضد هجوم العدو المنتظر)[3]

فإضافة إلى أن هذا الرأي لم يقل به أحد من العلماء الذين تعرضوا لموقف ابن أبي . فيما أعلم . فإنه غير مقبول عقلا... فهل من المعقول أن يأتمن الرسول ﷺ عبد الله بن أبي الذي تربطه باليهود علاقات على النحو الذي رأينا على

---

(١) البداية والنهاية ٤/٤٨.

(٢) الحديث تعقبه الأستاذ محمود شاكر وصححه ، راجع امتاع الأسماع حاشية صـ١/٤٩٧،وذكره ابن سعد في طبقاته ٣/٢/١٤٠ وهو في ظلال القرآن ٢/٩١٣.

(٣) محمد في المدينة . مونتجمرى وات صد ٣٤ . تعريب شعبان بركات . المكتبة العصرية . بيروت لبنان . د٠ت.

الدفاع عن أي جزء من أجزاء المدينة؟ ... ومعه من المهاجرين والأنصار ما معه ممن يقوم بهذه الأمانة في هذا الوقت العصيب ؟

سمات مرحلة الموالاة

❋ السمة الأولى:

ظهور قيادة للمنافقين توجههم وتأمرهم وتنهاهم، وترتبط باليهود بعلاقة تقوم على الحب والمودة بعد التحالف والتعاهد ، تمثلت في شخصية عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي، الذي تردد اسمه في أهم موقفين من مواقف هذه المرحلة وهما جلاء بني قينقاع ، وغزوة أحد ، ولئن كان من الممكن أن نعتبر موقفه في جلاء بني قينقاع لا يمثل عددا كبيرا من المنافقين ، حيث لم تذكر الروايات موقفا جماعيا لهم، فإن موقفه في غزوة أحد مختلف تماما، إذ يبدو فيه القيادة المنافقة الآمرة المطاعة المؤثرة في ثلث جيش المسلمين ، وكانت حركة انخذاله بثلث الجيش لافتة لنظر الجميع: القيادة والجنود على سواء.

❋ السمة الثانية:

تعتبر مرحلة الموالاة من المراحل المميزة لعلاقة المنافقين باليهود وذلك لما يلي:

١- إنها المرحلة الواصلة بين مرحلة المعية التي تبدو فيها العلاقة ساذجة ، وبين مرحلة المؤاخاة التي سنرى فيها أعمالا خطيرة على المسلمين من جراء هذه العلاقة.

٢- ليس لهذه المرحلة نهاية فهي ممتدة منذ موقف ابن أبى وأتباعه وإعلانهم موالاة يهود حتى وقتنا هذا.

٣- ظهر المنافقون في هذه المرحلة في صورة تجمع وحركة يحسب لها حسابها في الأحداث ولذلك وجدنا كثيرا من آيات القرآن تتناول مواقفهم بالبيان والكشف.[١]

❋ السمة الثالثة:

تميزت هذه المرحلة بالاتصال المباشر وبصورة معلنة بين المنافقين واليهود، وقد أظهر الموقفان السابقان ذلك بوضوح.

---

(١) راجع آيات سورة آل عمران (من ١٤٠ ـ ١٧٩).

❋ السمة الرابعة:

وقد نتج عن هذا الاتصال مسارعة في طاعة المنافقين لهوى اليهود، يتجلى ذلك من خلال قوله سبحانه: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾[المائدة:٥٢] ولاحظ قوله: (يسارعون فيهم) فهي أبلغ من قوله: يسارعون إليهم؛ إذ تدل على سرعة الاستجابة في تلبية الأوامر(١)

ومن خلال قوله سبحانه وتعالى عن علاقة المنافقين باليهود أيضا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾[محمد:٢٦]

وهذه الآية تكشف عن أن هناك أمورا مهمة سيأمر بها اليهود أتباعهم المنافقين، فيطيعون ويتم هذا في سرية وكتمان، لا يطلع عليه أحد في ظنهم، ولكن الله سبحانه كشف سرهم، وفضح كتمانهم.(٢)

❋ السمة الخامسة:

ومما نلاحظه في هذه المرحلة أيضا أن الله سبحانه وتعالى نهى المؤمنين عن موالاة يهود، وأخذ في وضع فواصل واضحة بين من يواليهم ومن يوالى المؤمنين حتى تميزت طائفتان عظيمتان، أو حزبان كبيران: المؤمنون بالله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم الحزب الأول، واليهود ومن يواليهم من المنافقين، وهم الحزب الثاني، ولعل الآيات التي ذكرناها في أول المرحلة كلها تبين ذلك بالإضافة إلى ما نزل في سورة آل عمران وغيرها.(٣)

---

(١) في ظلال القرآن ٩١٦/٢ (بتصرف)، والبحر المحيط لأبي حيان ٢٩٢/٤.

(٢) الكشاف ٣٧٥/٣ ، وفي ظلال القرآن ٣٢٩٧/٦ ، ٣٢٩٨ (بتصرف).

(٣) راجع تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾[آل عمران:١١٨] في جامع البيان ٦١/٤ ، ٦٥ ، والكشاف ١/ ٤٥٩ ، وغيرهما.

❋ المبحث الرابع: المرحلة الثالثة (مرحلة المؤاخاة).

في سورة بني النضير نقف مع المرحلة الثالثة من مراحل العلاقة بين المنافقين واليهود ، وهي مرحلة (المؤاخاة) التي وُسِمَت بهذه التسمية اقتباسا من قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[الحشر:١١] ﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[الحشر:١٢]

إن التاريخ قد وعى مؤاخاة الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار في العقيدة، وفي الجهاد في سبيل الله، وفي الحياة التي تقوم في أساسها على حب الله ورسوله والمؤمنين وموالاتهم.

ولم تكن المؤاخاة التي نشأت وتعمقت بين المنافقين واليهود من هذا القبيل، بل وما كانت مؤاخاة بسبب النسب، أو الرضاعة، أو أي وشيجة من وشائج القربى، وإنما كانت مؤاخاة ابتغاء العزة من المنافقين عند اليهود، واستخدام المنافقين في الكيد والحرب للمسلمين، وكلاهما يرى أنه أحق بالسيادة والملك والقيادة والتوقير والتعظيم من محمد ﷺ، فاليهود أعلنوا عداوته على لسان زعيمهم حيي بن أخطب فور سماعهم نبأ وصوله المدينة وقالوا: إنه طالب ملك!

والمنافقون أعلنوا حبهم لليهود على لسان زعيمهم ابن أبي، وحقد هذا الزعيم على محمد ﷺ لأنه يراه أنه قد سلب منه الملك.[١]

ولا بأس أن يتعلل الفريقان بأحلاف كانت بينهما في الجاهلية قد هدمها الإسلام بعد أن نقضها اليهود من جانبهم[٢] وأن يتعللوا بالمصالح الدنيوية والدوائر التي قد تحيط بهم من آن لآخر، ولهذا كله نشأت هذه الأخوة أو المؤاخاة بينهما.

وتتبدى أهم صور المؤاخاة بينهما في هذه الآيات؛ إذ نرى فيها المنافقين يقطعون على أنفسهم ميثاقا، ويبرمون به معاهدة مع اليهود في حالتي السلم والحرب، ففي حالة

---

(١) انظر ما سبق ص١١.

(٢) كما فعل بنو قينقاع، وكما سنرى من بني النضير ، وبني قريظة.

السلم يقولون لإخوانهم اليهود: (لئن أخرجتم لنخرجن معكم) فمصيرنا مصيركم، وموطننا موطنكم!! وفي حالة الحرب يقولون لهم: (ولئن قوتلتم لننصرنكم) فالدفاع مشترك بيننا وبينكم ضد عدونا المشترك وهو الإسلام ونبيه وأتباعه !!

وبين المعاهدتين (السلمية والعسكرية) لابد من التوثيق والتأكيد من جانب المنافقين؛ لأنهم أصحاب الأيمان الكاذبة والأحلاف المغشوشة ، فهم يؤكدون لمن هم أكذب منهم: (ولا نطيع فيكم أحدا أبدا) على وجه التأبيد، حتى ولو كان محمد رسول الله الذي نَدَّعي نفاقا أننا من أتباعه !!

وأمام هذه المؤكدات التي قطعها المنافقون على أنفسهم مع إخوانهم اليهود، والتي كانت من الخطورة بمكان، فالمنافقون يَطَّلِعون على أسرار المسلمين، ويعرفون توجهاتهم وخططهم، بحكم مخالطتهم لهم، واليهود ـ كما سنرى من الواقع التاريخي ـ نقضوا العهد، وأعلنوا العصيان، وتحصنوا بقلاعهم استعدادا لحرب المسلمين؛ ولهذه الأحداث ولغيرها مما سيمر به المؤمنون على مدى الأزمان والأعصار؛ أنزل الله سبحانه تفنيد بنود هذه المعاهدة السلمية والعسكرية، وبيان كذبها؛ لأنها تقوم بين قلوب متفرقة لا يجمعها إلا النفاق أو الحقد؛ ولذلك طمأن الله سبحانه وتعالى المؤمنين فقال عن هذه المؤاخاة: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[الحشر:١٢] ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[الحشر:١٣] ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[الحشر:١٤]

فالمنافقون لن يخرجوا مع اليهود، ولن يقاتلوا معهم؛ لأنهم لقلة خوفهم من الله يخافون من المؤمنين أشد الخوف، ولن يجتمعوا لقتالكم إلا خلف الحصون المنيعة؛ لأنهم كما يقول قتادة رضى الله عنه: "أهل الباطل مختلفون في آرائهم وأحوالهم... وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق".[١]

---

(١) هذا السياق هو خلاصة ما فهمته من المصادر التالية : (السيرة النبوية لابن هشام ٢١٩/٣ ، ٢٢١ ، جامع البيان ٤٦/٢٨ ، والكشاف ٨١/٤،٨٠،٧٩،والجامع لأحكام القرآن ١٨/٢. ٧، تفسير القرآن العظيم ٣٣٠/٤ . ٣٣٤ ،وفي ظلال القرآن ٣٥٢٩/٦ وغيرها كثير .

الواقع التاريخي لهذه المرحلة:

(في أوائل السنة الرابعة للهجرة نقض يهود بني النضير عهدهم مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما ذهب يستعينهم في دية قتيلين قتلهما مسلم دون علم منه أنهما معاهدين[١] فرحب اليهود برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودبروا له مكيدة في الخفاء، فقد كلفوا شقيا منهم أن يحمل صخرة عظيمة، ويصعد بها الحائط التي جلس الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحتها فيلقيها عليه فيتخلصون بذلك منه، ولما همَّ الشقي بفعل ذلك أوحى الله إلى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما أرادوا، فانصرف مسرعا عائدا إلى المدينة دونما أن يفطن له اليهود، ثم تبعه من كان معه من أصحابه، ونتيجة لهذا الغدر أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيش المسلمين بحصار بني النضير فحاصرهم، وكانوا في أول أمرهم يميلون إلى النزول على أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الجلاء عن المدينة، ثم تغير موقفهم بعد مراسلة سرية تمت بين المنافقين بقيادة ابن أبي وبين اليهود بزعامة حيي بن أخطب وتم فيها الاتفاق على ما يلي:

- لا يخرج اليهود من حصونهم ولا ينزلون على أمر محمد بل يزيدون من تحصنهم داخل حصونهم!
- يقوم ابن أبي بإمدادهم بألفي مقاتل من المنافقين يدخلون معهم في حصونهم، ويقاتلون معهم ضد المسلمين (وهذا العدد مقصود؛ إذ به تتعادل قوة اليهود المحاصرين بالداخل مع قوة جيش المسلمين التي كانت تبلغ آنذاك ثلاثة آلاف مقاتل).
- يعلن المنافقون أنهم مع اليهود سلما، وحربا.
- يبلغ اليهود للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رفضهم للخروج، وعدم النزول على رأيه على لسان مسؤول كبير منهم (وهو جدى بن أخطب أخو حيي ابن أخطب زعيم اليهود)[٢]

---

(١) وهما من بني عامر ، وكان معهما عقد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوار ولم يعلم به عمرو بن أمية فقتلهما ثأرا لشهداء بئر معونة، راجع السيرة النبوية لابن هشام ٣/٢١٥.

(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام ٣/٢١٩ ،٢٢١، مغازي الواقدي ١/٣٦٨، ٣٧٠، والنفاق والمنافقون للحميدي صـ٢٠٧،٢١٢، والنفاق والمنافقون لصابر إبراهيم سالم صـ١٤٧.١٦٠ ، وغيرها.

هذه هي بنود المعاهدة الأخوية (السلمية العسكرية) التي عقدها المنافقون مع اليهود ضد المسلين، فهل تمكنوا من تنفيذ بنودها؟ لقد شاءت قدرة الله سبحانه الذي كتب الجلاء على بني النضير ألا يتم من بنودها إلا ما يلي:

ـ رفض بنو النضير النزول على أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثوقا منهم بوعد ابن أبي لهم.

ـ ذهب جدي ابن أخطب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبلغه عدم نزول اليهود على أمره.

ـ انتظر اليهود مدد ابن أبي لهم لكن دون جدوى، فقد نكث الرجل وعده، وانكشف ضعفه ونفاقه، ولم يستطع أن يحرك منافقا واحدا ليدخل مع اليهود لحرب المسلمين، وكيف يفعل المنافقون ذلك وهم الذين وصف الله جبنهم وخوفهم من القتال بقوله سبحانه: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾[التوبة:٥٧]؟

واشتد حصار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم، ودام حصاره أكثر من عشرين يوما، نزلوا بعدها على أمر الله ورسوله، وأنزل الله في ذلك قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر:١] ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[الحشر:٢]

وحكم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم بالخروج من بيوتهم لا يحملون من متاعهم إلا ما تحمله الإبل عدا الحلقة، فخرجوا من بيوتهم يخربونها بأيديهم وأيدي المؤمنين، ونزل بعضهم على إخوانهم يهود خيبر، وبعضهم سار إلى الشام.(١)

الموقف الثاني: في غزوة الأحزاب.

وفي هذه المرحلة أيضا وقعت غزوة الأحزاب، وهي التي تجَمَّع فيها أعداء المسلمين من كل ناحية؛ لاستئصال شأفة المسلمين، فلجأ المسلمون لحفر الخندق

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣/٢٢١،٢١٩،مغازي الواقدي ٣٦٨/١. ٣٧٠، وغيرهما من المصادر.

حول المدينة، وحاصرها المشركون قرابة شهر مرت فيه على جيش المسلمين أوقات مزلزلة بلغت فيها القلوب الحناجر، وتباينت فيها الظنون ومحصت في القلوب.(١)

ويهمنا أن نرصد علاقة المنافقين باليهود في هذا الوقت العصيب:

ـ أما اليهود فمنهم من تحزب مع أحزاب المشركين مشاركا لهم في حصار المدينة كابن أخطب ومن تبعه من بني النضير الذين أجلاهم النبي ﷺ جزاء غدرهم، على نحو ما ذكرنا آنفا، ومنهم من أعلن خيانته للنبي ﷺ في أشد الأوقات حرجا، وهم بنو قريظة الذين أعلنوا نبذهم للعهد الذي بينهم وبين رسول الله في ذلك الوقت العصيب.

ـ ولا يشك أحد في أن هدف الفريقين اليهوديين: من شارك منهم المحاصرين للمدينة، ومن خان العهد منهم من الداخل هو القضاء على جيش المسلمين بعد هزيمته؛ ولذلك كانت أوامرهم لإخوانهم المنافقين المشاركين للجيش الإسلامي آنذاك بالتسلل من صفوف الجيش، وتمحل الأعذار الواهية وإشاعة الأراجيف، فقد روى القرطبي في تفسيره لقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ﴾[الأحزاب:١٣]

عن ابن عباس قال :(إن اليهود قالت لعبد الله بن أبي واصحابه من المنافقين: ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بين أبي سفيان وأصحابه؟ ارجعوا إلى المدينة فإنا مع القوم وأنتم آمنون).(٢)

(١) راجع غزوة الأحزاب، وموقف المنافقين، وموقف بني قريظة في المصادر الآتية : (السيرة النبوية لابن هشام ٣/٢٨٢،٢٥٦،٢٥٥. ٢٩٩، فتح الباري ٣٩٧/٧ ، جامع البيان ٢١/ ١٣١ ، ١٣٣. ١٣٧ ، والكشاف ٢٥٣/٣ ،الجامع لأحكام القرآن ١٢٩/١٤، ١٤٨،تفسير ابن كثير ٤٩١/٣، ٤٩٢، والبداية والنهاية ١١٤/٤ ، وروح المعاني ١٥٧/٢١،١٦٣، النفاق والمنافقون للحميدي صـ٣١٠ ـ ٣٣٤) وغيرها

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤٨/١٤.

وفي عبارة مجملة قال النيسابوري في تفسيره للآية: (هم اليهود قالوا للمنافقين)[١]، وكذلك في تفسيره لقوله سبحانه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الأحزاب:١٨] قال القرطبي: (هم اليهود قالوا للمنافقين).[٢]

بل إن الأستاذ على سالم يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فيقول: (إن عبد الله بن أبي بعد أن كان عدوا ليهود بني النضير وقريظة من يوم بُعاث، وقبله لحلفهم مع الأوس؛ إذ حاربوه انقلب في هذه الموقعة وصار حليفا لهم. ومعنى هذا أن حلفا انعقد بين ابن أبي وبين اليهود جميعا بعد جلاء بني قينقاع ، ولا بد أن ذلك الحلف قد انعقد سرا)[٣]

ـ وكان دور المنافقين على جانب جد خطير، إذ أتوا جيش المسلمين من ثغرة قاتلة، وحكى عنهم القرآن الكريم مواقف كان لها أثرها البالغ في نفوس الجيش المسلم.

ـ فقد نفذوا أوامر إخوانهم اليهود بالتسلل من ميدان المعركة. يقول سبحانه وتعالى عنهم: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣]

ـ وتعاونا منهم مع اليهود في إضعاف الجيش المسلم وتحطيم روحه المعنوية نثر المنافقون الأراجيف في صفوف الجيش، وحكى عنهم القرآن ذلك فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[الأحزاب:١٢] ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[الأحزاب:١٣]

ـ وصوَّر القرآن الكريم حدةَ ألسنتهم في بذر الأراجيف ونشرها في نفوس المقاتلين فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[الأحزاب:١٩]

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان على حاشية تفسير الطبري ٢١/٩١،٨٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤/١٤٨.

(٣) النفاق والمنافقون لإبراهيم علي سالم صـ١٥٩.

ومع ضخامة هذه المعركة وضخامة الدور الذي قام به اليهود فيها، وخطورة الدور الذي كُلِّفَ المنافقون بأدائه إلا أننا لا نجد معاهدات مبرمة بينهما، بل لا يظهر لنا تخطيط معلن بينهما، وأرجح ـ والله أعلم ـ أن الأدوار التي كُلِّف بها المنافقون كانت بصورة غاية في السرية والتكتم، وأعلل هذا الترجيح بما يلي:

١. إن موقف ابن أبي في خذلانه ليهود بني النضير أثناء حصارهم، جعل حيي بن أخطب –أحد زعماء الحصار للمسلمين– لا يعيد الكرة مرة أخرى مع هذا المنافق الذي لا وعد له، وإنما تركه ليقوم هو ومن معه بالدور الداخلي الخطير الذي ستكون نتائجه أيا كانت في صالح أعداء الإسلام، وعلى رأسهم اليهود.

٢ ـ إن العداء المعلن الذي انتهجه ابن أخطب بقيادته الأحزاب لحصار المسلمين في المدينة ، وما حشده من قوى الكفر التي لم تعرف لها الجزيرة العربية مثيلا للقضاء على الإسلام، وما قام به بنو قريظة جعل الاهتمام بدور المنافقين الداخلي –على خطورته– لا يبدو ظاهرا للعيان، حتى أننا لا نرى تركيز المصادر على علاقتهم باليهود بقدر ما نرى تركيزها على رصد أعمال كل فريق منهم على حدة، على الرغم من وحدة الهدف المعلن والخفي.

٣. إن قيام يهود بني قريظة بدور الخيانة العظمى للمسلمين وقت المواجهة، كان أخطر بكثير من دور المنافقين، بيد أن دور المنافقين كان مكملا له، وكل منهما قد أتى ثماره في صفوف جيش المسلمين ، ولكن تدخل القدرة الإلهية هو الذي أنقذ المسلمين من براثن الكفر؛ فأرسل الله جنودا من عنده فرقت شمل الأحزاب، فعادوا من حيث أتوا، لم يجنوا سوى هزيمة نكراء، وحاصر النبي بني قريظة جزاء خيانتهم، وحكم فيهم سيد الأوس سعد بن معاذ الذي حكم فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات، والله أعلم.(١)

---

(١) وقعت غزوة الأحزاب في السنة الخامسة وبعدها غزوة بني قريظة في السنة نفسها ، وقد حاصرهم النبي عليه السلام وحكم فيهم سعد بن معاذ بقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم، وتقسيم أموالهم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : قضيت بحكم الله تعالى) أنظر فتح الباري ٢٩٨/١٥ ، صحيح مسلم ١٣٨٨/٣،راجع المصادر السابقة.

الموقف الثالث: (الخطة المشتركة بين المنافقين واليهود للتخلص من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة)

إن فكرة التخلص من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة يهودية المنبت، فقد خطط لها يهود بني النضير(١) وفشلوا، وحاولتها يهودية من يهود خيبر(٢) ففشلت أيضا، ولا ننس أن ابن أبي كبير المنافقين قد دافع عن بني النضير في موقفهم هذا حتى وصلت العلاقة بينهما إلى درجة الأخوة، فلماذا لا يعاود اليهود هذه الفكرة، ولكن من خلال المنافقين هذه المرة علها تفلح؟

كانت هذه الخطة مكونة من فصول ثلاثة :

. **الفصل الأول:** حرب إعلامية تُشْبِهُ التي مارسها المنافقون في مواقف مشابهة، حتى صاروا ضالعين في اتقانها وإثارتها، وتبدأ هذه الحرب قبل المسير إلى الغزوة، وكانت غزوة تبوك في وقت شديد الحرارة حتى عرفت بـ (غزوة العسرة) آنذاك، وتستمر في أثنائها، وقام بهذا الدور كبير المنافقين: عبد الله بن أبي وآخرون، واليهودي زيد بن اللصيت الذي أعلن إسلامه نفاقا، حسب الخطة اليهودية القديمة التي ذكرناها فيما قبل.(٣)

. **الفصل الثاني:** أن يقوم ابن أبي بما سبق له أن قام به، وهو الانخذال بما يستطيع من المنافقين، وبعض اليهود الذين أسلموا نفاقا، ويتم ذلك أثناء مسير الجيش.(٤)

. **الفصل الثالث:** أن يكون بعض المنافقين الذين سيواصلون السير مع الجيش هم وبعض من أسلموا نفاقا من اليهود على استعداد تام لاهتبال الفرصة متى سنحت لاغتيال محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) انظر ما سبق صـ٤٥.

(٢) غزوة خيبر وقعت في السنة السابعة للهجرة، كما في السيرة النبوية لابن هشام ٣/٤٥٥ ومحاولة اليهود قتل النبي بالسم وردت في فتح الباري ١٢/٢٦١ ، وصحيح مسلم ٤/١٧٢١.

(٣) انظر ما سبق صـ ٢٦.

(٤) كما انخذل في غزوة أحد. انظر ما سبق صـ ٣٧.

ولكن كيف تمت فصول هذه الخطة: (في دار سويلم اليهودي في منطقة الجاسوم بالمدينة بدأت اجتماعات المنافقين قبل غزوة تبوك، وقد فطن المسلمون إلى ذلك، فأرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم طلحة بن عبد الله في نفر من أصحابه، فحرقوا عليهم بيت سويلم، فاقتحم أحدهم من ظهر البيت وكان اسمه الضحاك بن خليفة، فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا).(١)

ونلاحظ أن الاجتماع كان في دار يهوديّ!! (وفي الطريق إلى تبوك نزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثنية الوداع وعسكر بها، وعسكر ابن أبي، ومعه حلفاؤه من اليهود والمنافقين أسفل ثنية الوداع نحو جبل ذباب بالقرب من معسكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما عزم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المسير انخذل ابن أبي هو ومن معه وبعض أحلافه من اليهود راجعا إلى المدينة مرددا قوله: (يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر، والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به، يحسب أن قتاله معهم اللعب، والله لكأني أنظر إلى أصحابه غدا مقرنين في الحبال).

وأما زيد بن اللصيت الحبر اليهودي الذي أسلم نفاقا، وكان ممن أكمل المسير مع الجيش، فقد أتى بفرية أعظم، إذ لما ضلَّت ناقة رسول الله في بعض الشعاب قال الخبيث: (أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم خبر السماء، وهو لا يدرى أين ناقته)(٢)

ولم يكتف الحبر اليهودي بذلك إذ شارك المنافقين هو وسلالة بن الحمام القينقاعي الذي أسلم نفاقا أيضا في محاولة اغتيال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ففي طريق العودة من تبوك حاول جماعة من المنافقين الملثمين أن يطرحوا رسول الله عن راحلته من رأس عقبة بالطريق في عتمة من الليل، فشعر بمؤامرتهم، فأمر بإبعادهم عنه)(٣)

وكان من بين هؤلاء الملثمين هذان اليهوديان اللذان أسلما نفاقا!(٤)

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤/١٦٠، وشرح المواهب اللدنية ٣/٦٦.

(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٨إمتاع الأسماع ١/ صـ٤٥٧،٤٥٦، المواهب اللدنية ٣/٧٥. وغيرها.

(٣) مسند الإمام أحمد٥/٣٩١،٣٩٠ ، بإسناد حسن ، دلائل النبوة للبيهقي ٥/٢٥٦، ٢٥٩ نقلا عن السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية صـ٦٣٠.

(٤) راجع تفسير ابن كثير ١/٤٧، ٢/٣٧٣،٣٧٢.

تلك هي خطة المنافقين في اغتيال الرسول ﷺ، وإن اختلفت بعض سياقاتها لكن مضمونها لا يخرج عن ذلك، وقد ذكرت كتب الصحيح بعض جوانبها، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة (وهم المنافقون الذين أرادوا قتل النبي ﷺ) وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس فقال: (أنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة؟ فقال له القوم: أخبره فقد سألك، فقال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة قالوا ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم).[(١)]

وقد ذكر ابن كثير وغيره أن هذه الحادثة كانت سببا في نزول قوله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْ﴾[التوبة:٧٤][(٢)] ويكفي هذا إثباتا لصحة وقوعها، والله أعلم.

* * * *

وأخيرا فلم تكن هذه المواقف هي آخر ما يدل على علاقة المنافقين باليهود، غير أنها كانت أظهرها ، وقد رأينا في هذه المرحلة وفي غيرها أعمالا للمنافقين تبدو في الوهلة الأولى وحدهم فقط، فإذا بها تشابه إلى حد بعيد أعمالا صنعها اليهود بداية، وسار المنافقون على دربهم، فالحبر اليهودي ابن شماس يقوم بالفتنة بين الأوس والخزرج بعد أن جمعتهم أخوة الإسلام ، وكذلك يفعل عبد الله بن أبي فيثير الفتنة بين المهاجرين والأنصار !![(٣)]

---

(١) مختصر صحيح مسلم للمنذري، صـ٥١٦ حديث١٩٤١، تحقيق ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي بيروت . الطبعة السادسة ١٤٠٧هـ وفي الحاشية قال النووي: هذه العقبة ليست العقبة المشهورة يعني التي كان بها بيعة الأنصار، وإنما هي عقبة على طريق تبوك.

(٢) تفسير ابن كثير ٣٥٦،٣٥٧/٢، وقد ذكر آثارا أخرى حول هذه القصة لمن أراد المزيد . طبعة عالم الكتب ـ بيروت لبنان . ١٤١٣ هـ (بتصرف).

(٣) راجع فتنة قيس بن شماس اليهودي بين الأوس والخزرج في السيرة النبوية لابن هشام ٣٩٦/٢ ، جامع البيان ٢٢،٢٣/٤ ، وتفسير القرآن العظيم ٣٦٨/١ ، ومكائد اليهود صـ١٠٦ ، وغير ذلك ، وفتنة عبد الله بن أبى بين المهاجرين والأنصار حدثت في غزوة المريسيع (بني المصطلق)ونزل فيها (سورة المنافقون) راجع جامع البيان ١١٣/٢٨، وابن هشام ٤٠٢/٣ فتح الباري٢٨٩/١٨ ، مختصر صحيح مسلم صـ٥١٥ وغيرها.

والصائغ اليهود القينقاعي يراود المرأة المسلمة على تعرية بعض ثيابها[1] ويطلب اليهودي كعب بن الأشرف من العرب بعض النساء رهائن في بعض الاتفاقات بينهما[2]، ويثير عبد الله بن أبي –زعيم المنافقين– حادث الإفك على السيدة عائشة[3] وغير ذلك من الأعمال التي قام بها المنافقون مشابهة بأعمال اليهود ، لا يتسع المجال لذكرها هنا.

*　*　*　*　*

سمات مرحلة المؤاخاة

السمة الأولى:

احتوت هذه المرحلة على موقفين خطيرين كانا نتيجة لعلاقة المنافقين باليهود، وهما المعاهدة (السلمية العسكرية) بين المنافقين وبني النضير، ومحاولة قتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومشاركة اليهود مع المنافقين في ذلك ؛ ولذلك فهي مرحلة الأعمال الكبرى ذات التأثير الضخم.

---

(١) وما فعله الصائغ اليهودي سبق ذكره صـ ٣٤.

(٢) انظر ما طلبه كعب بن الأشرف من أبى نائلة السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٨٢ ، ومغاز الواقدي ١/ ١٨٥، وبنو إسرائيل في ميزان القرآن الكريم . صابر طعيمة . صـ ٤٦دار الجيل . بيروت . الطبعة الأولى .١٩٧٥م ، والخطر اليهودي (بروتوكولات حكماء صهيون) ترجمة محمد خليفة التونسي . ص٢٩٠ وجاء فيها:(هناك ستمهد السبيل لإفساد الحماسة ، وللانحلال الأخلاقي بمساعدة النساء اليهوديات) ،(والنساء في خدمة صهيون يعملن كأحابيل ومصايد لمن يكونون في حاجة إلى المال على الدوام) ـ مكتبة دار التراث . مصر ـ ١٩٧٦م.

(٣) أما حادث الإفك الذي ارتكبه عبد الله بن أبي ونزل فيه الآيات (١١ ـ ٢٠) من سورة النور فمصادره لا تحصى ومنها على سبيل المثال :فتح الباري ٤٥٩/٨ ، السيرة النبوية لابن هشام /٢٩٠، جامع البيان للطبري ٩٧/١٨ ، الكشاف ٥٤/٣، تفسير ابن كثير ٢٦٨/٣ . ٢٧٢ ، روح المعاني ١١٦،١١٧/١٨، ١١٨، وغيرها.

السمة الثانية:

إن أكبر الإحصائيات ذكرا لعدد المنافقين هي ما جاء على لسان زعيمهم ابن أبي أنه سيدخل مع يهود بني النضير بألفين من المنافقين يتحصن معهم، ويزيد من قوتهم ضد المسلمين، ولا نشك في أن ذلك كان مبالغة كاذبة من ابن أبي حاول بها الإرجاف في صفوف الجيش المسلم ، وإشاعة الخوف ودليل ذلك ان ابن أبى لم يفِ بوعده لليهود، ولكننا نفهم من عبارته الكاذبة أن عدد المنافقين في هذه الحادثة لم يكن قليلا، غير أن قيادتهم المكشوفة كان لها بروزها الضخم ودورها الخطير.

السمة الثالثة:

لقد وضعت هذه المرحلة المنافقين واليهود في مواجهة مع المسلمين، وهذا واضح في غزوة بني النضير، وفي غزوة الأحزاب، ولعل ذلك أدى إلى شدة السرية والكتمان والتستر على العلاقة القائمة بينهما.

السمة الرابعة:

طول الفترة التي استغرقتها مرحلة المؤاخاة مع سرية العلاقة بين المنافقين واليهود.

السمة الخامسة:

تميزت هذه المرحلة بكثرة ما نزل فيها من قرآن يصف المنافقين ، وبين خطورتهم ويرسم خطط مواجهاتهم مع الإشارة إلى علاقتهم باليهود، كما نرى في سورة الحشر ، وسورة الأحزاب وغيرهما.

السمة السادسة:

على الرغم من خطورة هذه المرحلة فإنها سرعان ما تتكشف أمام ثبات المؤمنين عن خلافات عميقة وجذرية بين قلوب المنافقين وإخوانهم من أهل الكتاب اليهود خاصة، كما يقول سيد قطب: (وينكشف الحال عن نزاع في داخل المعسكر الواحد قائم على اختلاف المصالح وتفرق الأهواء وتصادم الاتجاهات، وما صَدَقَ المؤمنون مرة،

وتجمعت قلوبهم حقا إلا وانكشف المعسكر الآخر أمامهم عن هذه الاختلافات، وهذا التضارب، وهذا الرياء الذي لا يمثل حقيقة الحال).[١]

❁ نتائج العلاقة بين المنافقين واليهود

نستطيع أن نميز بين نوعين من النتائج:

١- نتائج إيجابية.

٢- نتائج سلبية.

النتائج الإيجابية

أولا: إن من أهم النتائج الإيجابية لعلاقة المنافقين باليهود هي ظهور التميز بين المؤمنين والمنافقين في المجتمع المسلم، وتمحيص المؤمنين بهذا الداء الخطير الذي لا يستطيع المسلمون تمييز أصحابه إلا إذا ظهرت مواقفهم، يقوله سبحانه وتعالى:

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[آل عمران:١٤١] وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٦] ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران:١٦٧] ويقول سبحانه: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[آل عمران:١٧٩]

وعلاقة المنافقين باليهود كانت أهم المواقف المعلنة التي أظهرت المنافقين للعيان ودليل ذلك تراه في هذه السلوكيات العملية:

١- موقف المؤمن زيد بن حارثة من المنافق المرجف بنصر بدر.[٢]

٢- في غزوة يهود بني قينقاع تشبث المنافق عبد الله بن أبي باليهود، وتبرأ المؤمنُ عبادة بن الصامت منهم، وخلع حلفهم.[٣]

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٥٢٩.

(٢) انظر ما سبق صـ٢٤.

(٣) انظر ما سبق صـ ٣٥.

٣- في غزوة أحد انخذل المنافق عبد الله بن أبي ومعه المنافقون، فما هو سلوك المؤمنين؟ تبعهم المؤمن عبد الله بن عمرو بن حرام رضى الله عنه يقول لهم: (يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه).(١)

٤ ـ موقف المؤمن عمارة بن حزم العقبي البدري، من الحبر اليهودي زيد بن اللصيت القينقاعي الذي أسلم نفاقا، وتحدث في غزوة تبوك مشككا في نبوة رسول الله لما ضاعت ناقته، فقد كان هذا المنافق في رحل عمارة، فلما علم بما قال عن رسول الله ﷺ أقبل على المنافق يجوءه في عنقه ويقول: إن في رحلي لداهية وما أشعر -أخرج أي: عدو الله- من رحلي فلا تصحبني)(٢)

ثانيا: ومن النتائج الإيجابية أيضا: بيان نوع العلاقة بين المؤمنين وبين اليهود وغيرهم من أعداء الإسلام، يقول سبحانه:

١. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾[آل عمران:١٠٠]

ويقول سبحانه مبينا صفة من صفات المنافقين:

٢. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾[محمد:٢٦]

---

(١) مغازي الواقدي ٢١٤/١، ٢١٩ ، البداية والنهاية ١١/٤ ، المنافقون في القرآن الكريم للحميدي صـ١٢١.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٦٦/٤ ، إمتاع الأسماع صـ٤٥٦، ٤٥٧ ، المواهب اللدنية ٧٥/٣.

وحرَّم سبحانه وتعالى على المؤمنين مباطنتهم فقال:

٣. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾[آل عمران:١١٨]

وحرم موالاتهم فقال:

٤. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾[المائدة:٥١] وجعل مؤاخاتهم أهم علامات النفاق فقال سبحانه:

٥. ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ﴾[الحشر:١١]

٦. وحرم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الاستعانة بهم في غزوة أحد فقال: (لا نستعين بالمشركين على المشركين).[١] وحكم على من يطيعهم، أو يباطنهم، أو يواليهم، أو يؤاخيهم، بأنه منافق من جملة المنافقين.

ثالثا: ومن النتائج الإيجابية أيضا: أن الجيش المسلم لم يعد يهزه انخذال المنافقين بعدما فعلوا ما فعلوا في غزوة أحد، فإن انخذالهم مرة أخرى في غزوة تبوك لم يسبب في الجيش المسلم أدنى أثر.

النتائج السلبية:

١- اطلاع اليهود على أسرار المجتمع المسلم من خلال المنافقين.

٢- بالإضافة إلى معصية أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة أحد تعتبر خطة المنافقين مع اليهود من عوامل عدم إحراز النصر، فقد انخزل ثلث الجيش مع ابن أبي، وكان لذلك أثره النفسي على الجيش؛ حتى أدَّى ذلك إلى اختلاف طائفتين من جيش المسلمين في شأن المنخذلين.

وعلى كل حال فلم تكن معنويات الجيش المسلم في غزوة أحد كتلك التي كانت في غزوة بدر.

٣- إن إنقاذ يهود بني قينقاع، ويهود بني النضير على أيدي المنافقين من القتل كان له بعض السلبيات على المجتمع المسلم، فقد كان الحبر اليهودي زيد بن اللصيت

---

(١) تتبعه الدكتور أكرم ضياء العمرى وصححه ، أنظر كتابه المجتمع المدني صـ١٢٤، وقد سبق الإشارة إلى ذلك صـ ٣٨.

القينقاعي -الذي أسلم نفاقا- ممن مارس الحرب الإعلامية ضد المسلمين وهو في صفوفهم[١] وكان حُيي بن أخطب ممن قاد الأحزاب ضد المسلمين في المدينة.[٢]

٤- وكان للدور الخطير الذي قام به يهود بني قريظة من الخارج وقام به المنافقون من الداخل في حصار الأحزاب للمدينة أثره البالغ على المسلمين حتى صوره القرآن الكريم فقال سبحانه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾[الأحزاب:١٠] ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:١١]

٥- إن من أخطر النتائج السلبية على المجتمع المسلم من علاقة المنافقين باليهود هو التشكيك الدائم في المنهج وفي القيادة، أما في المنهج فقد تكفَّلَ بذلك اليهود، وأما في القيادة فقد قام ابن أبي زعيم المنافقين بهذا الدور في أكثر من موقف.[٣]

٦- التخطيط الدائم والمستمر للتخلص من القيادة، كما رأينا في غزوة تبوك.[٤]

٧- تلوُّن العلاقة بينهما، فهي طور معلنة، وطور سرية، ومرة فيها الملاينة، كما رأينا من ابن سلول مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليقبل شفاعته في بني قينقاع، ومرة فيها التحدي، كفعله في الدفاع عن بني النضير.[٥]

٨- ومن النتائج السلبية الخطيرة أيضا تَعَلُّمُ المنافقين طرائقَ الكيد للمجتمع المسلم من خلال علاقتهم باليهود، كما فعل ابن أبي في فتنته بين المهاجرين والأنصار، وحادث الإفك، وكما فعل المنافقون من بعده -كبناء مسجد الضرار، ثم كان من أجيالهم- بعد وفاة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأعراب المنافقين المرتدين عن الإسلام، ثم فتنة عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أعلن إسلامه نفاقا، وتسبب في قتل خليفة المسلمين عثمان بن عفان، وظلت أجيالهم تتوالى وعلاقتهم باليهود لا تنتهي، حتى رأيناهم حديثا في يهود الدونمة الذين أعلنوا إسلامهم نفاقا، وأسقطوا الخلافة الإسلامية.[٦]

---

(١) راجع ما سبق ص: ٦٢.
(٢) راجع ما سبق ص ١٥.
(٣) راجع ما سبق ص٢٨، ٢٩.
(٤) راجع ما سبق ص: ٦١، ٦٢.
(٥) راجع ما سبق ص: ٤١، ٤٢.
(٦) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة . الندوة العالمية للشباب الإسلامي . الرياض . السعودية . الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ .

الخاتمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ونصلي ونسلم على سيدنا وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فلعل هذا البحث المتواضع قد ألقى بعض الضوء على (علاقة المنافقين باليهود في ضوء القرآن الكريم)، وقد راعيت فيه الاعتماد على آيات القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم كتب التفسير القديمة والحديثة، والحديث، السيرة النبوية الشريفة، وغيرها، مُوَثِّقا للروايات ما أمكن ذلك، وراصدا من خلال هذه المصادر هذه (العلاقة) التي تبدت في مراحل ثلاث:

مرحلة المعية، ثم مرحلة الموالاة، ثم مرحلة المؤاخاة، وهي ليست تقسيمات حتمية، بل هي اجتهادية، فلا شك أن هذه المراحل متداخلة، وقد تحدث كلها في زمن واحد، وإنما ميزت ذلك من باب التغليب لا أكثر، ثم اردفت ذلك بنتائج لهذه العلاقة استقيتها من خلال البحث.

واللهَ سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل عملنا خالصا لوجهه، وأن يكتب لنا القبول عنده، ويعيذنا من شرور النفاق والمنافقين، وإخوانهم من اليهود والحاقدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين!

أهم المصادر والمراجع

١-الإتقان في علوم القرآن للحافظ جلال الدين السيوطي / دار ابن كثير دمشق بيروت الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ.

٢- أسباب النزول للواحدي، المحقق: عصام الحميدان، دار الإصلاح – الدمام الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٣- الاستخبارات العسكرية في الإسلام عبد الله مناصرة – مؤسسة الرسالة طبعة ثانية سنة ١٤١٢هـ

٤- الإيمان محمد بن منده – طبعة المجلس العلمي- الجامعة الإسلامية – المدينة المنورة سنة ١٤٠١هـ.

٥-الإيمان ابن تيمية – تحقيق: الألباني- المكتب الإسلامي – دمشق- طبعة ثالثة سنة ١٤٠٨ هـ

٦- امتاع الأسماع بما للرسول من الأنبياء والأموال والحفدة والمتاع – أحمد بن على المقريزي تحقيق محمود شاكر –الشئون الدينية – قطر – الطبعة الثانية –د ت.

٧- البداية والنهاية – أبو الفداء الحافظ ابن كثير- مكتبة المعارف بيروت- مكتبة النصر الرياض الطبعة الأول سنة ١٩٦٦م

٨- بنو إسرائيل في القرآن الكريم –تاريخ وتحقيق دكتور/السيد الطويل – دار المعارف مصر سنة –١٣٩٥هـ.

٩- بنو اسرائيل في ميزان القرآن الكريم – صابر طعيمة – دار الجيل – بيروت – لبنان سنة ١٩٧٥م

١٠- التآمر اليهودي على حياة الرسول صلى الله عليه وسلم دكتور سعد المرصفي – مكتبة المنار – الكويت – سنة ١٤١٣ هـ

١١- تاريخ الأمم والملوك للطبري - دار المعارف مصر - الطبعة الثانية سنة

١٢- التاريخ اليهودي العام - صابر طعيمة - دار الجيل بيروت - الطبعة الثالثة سنة ١٤١١هـ

١٣- التفسير الكبير -

١٤- تفسير القرآن الحكيم - محمد رشيد رضا دار المعرفة بيروت -لبنان سنة.

١٥- تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت لبنان الطبعة الأولى سنة ١٤١٣هـ.

١٦- جامع البيان في تفسير القرآن لأبى جعفر محمد بن جرير الطبري-دار المعرفة-بيروت لبنان سنة ١٤٠٦ هـ.

١٧- جامع العلوم والحكم - زين الدين أبى الفرج - دار الريان للتراث القاهرة - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

١٨- الجامع لأحكام القرآن - لأبى عبد الله القرطبي - دار احياء التراث العربي بيروت -لبنان

١٩- حقوق أهل الذمة لابن القيم .

٢٠- خاتم النبيين - الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة - قطر - مؤتمر السيرة والسنة - ١٤٠٠هـ

٢١-الخطر اليهودي - ترجمة محمد خليفة التونسي، دار التراث - القاهرة - ١٩٧٦م.

٢٢- دراسة في السيرة النبوية - دكتور عماد الدين خليل مؤسسة الرسالة - دار النفائس - الطبعة الثالثة ١٣٩٨ هـ.

٢٣ - رغائب الفرقان للنيسابوري على حاشية تفسير الطبري دار المعرفة - بيروت لبنان ١٤٠٦هـ

٢٤- روح المعاني- للألوسي، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

٢٥- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام - السهيلي - تحقيق عبد الرحمن الوكيل - دار النصر للطباعة.

٢٦- زاد المعاد في هدي خير العباد / تحقيق شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط مؤسسة الرسالة بيروت - الطبعة الخامسة والعشرون ١٤١٢ هـ

٢٧- سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم - صور مقتبسة من القرآن الكريم - دكتور/ محمد عزة دروزة - دار إحياء التراث - قطر -١٩٦٥م.

٢٨- السيرة النبوية في ضوء المصادر _دكتور / مهدي رزق الله أحمد الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

٢٩- السيرة النبوية لابن هشام - تحقيق وضبط: وشرح مصطفي السقا - ابراهيم الإبياري - عبد الحفيظ شلبي.

٣٠- سيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد - الصالحي - تحقيق عبد العزيز حلمي - المجلس الأعلى مصر - ١٣٩٥هـ.

٣١- الصارم المسلول على شاتم الرسول ابن تيمية - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد -عالم الكتب - ١٤٠٣هـ.

٣٢- صحيح البخاري،

٣٣- صفة النفاق وذم المنافقين - لابي بكر الفريابي تحقيق محمد عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٧هـ.

٣٤ -الطبقات الكبرى -محمد بن سعد - دار صادر بيروت.

٣٥ -طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم الجوزية - تحقيق بشير عون - مكتبة المؤيد - الرياض ١٤١٤هـ.

٣٦- عبد الله بن سبأ وأثره في الفتنة - سليمان بن حمد العودة - دار طيبة الرياض - الطبعة الثانية ١٤١٢هـ.

٣٧- الفتاوى- لابن تيمية . مطبعة الرياض . السعودية. الطبعة الأولى .١٣٨٢هـ .

٣٨- الكتاب المقدس.

٣٩- الكشاف - عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري - دار المعرفة بيروت لبنان ١٣٨٩هـ

٤٠- لسان العرب - محمد بن منظف - تصنيف يوسف خياط - دار لسان العرب - بيروت ١٣٨٩هـ

٤١- المجتمع المدني فيعهد النبوة - / دكتور أكرم ضياء العمرى - المجلس العلمي إحياء التراث الإسلامي - الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ.

٤٢- محمد في المدينة - مونتجمرى وات - تعريب شعبان بركات المكتبة العصرية - صيدا لبنان -د.ت.

٤٣- المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى / دكتور محمد السيد الوكيل - دار المجتمع - جدة -السعودية - سنة ١٤٠٩هـ

٤٤- المزهر في اللغة - السيوطي - دار إحياء الكتب العربية - الطبعة الثالثة.

٤٥- المسند للإمام أحمد بن حنبل - دار صادر - بيروت - طبعة أولى ١٣٨٩هـ

٤٦- مغازي الواقدي - تحقيق ماردسون جونسن مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت -لبنان -د.ت

٤٧- مفردات الفاظ القرآن الكريم - للأصفهاني تحقيق: صفوان عدنان لاوردي - دار القلم - الطبعة الأولى - دمشق -بيروت ١٤١٢هـ.

٤٨- مكائد اليهود عبر التاريخ / دكتور عبد الرحمن حبنكة - دار القلم - دمشق - طبعة أولى سنة ١٣٩٤هـ

٤٩- المنافقون في القرآن الكريم /دكتور عبد العزيز الحميدي - دار المجتمع - جدة السعودية طبعة أولى سنة ١٤٠٩هـ

٥٠ المنافقون في القرآن الكريم دكتور / محمد يوسف دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة -مصر - ١٩٩١م

٥١- المنهج الحركي للسيرة النبوية - منير الغضبان - مكتبة المنار الطبعة السادسة ١٤١١هـ - الأردن الزرقاء.

٥٢- الموالاة والمعادة لابن تيمية وسيد قطب -جمع وتقديم مروان كحك -نشر وتوزيع دار الكلمة الطيبة القاهرة الطبعة الثانية ١٤١٢هـ

٥٣- المواهب اللدنية بالمنح - المحمدية -القسطلاني -تحقيق صالح الشاقي - المكتب الإسلامي - دمشق الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٥٤- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٩هـ الرياض السعودية.

٥٥- الولاء والبراء - تأليف محمد بن سعيد القحطاني - دار طيبة مكة المكرمة - الرياض.